297
A5241iA
C.1

الدكتور احمد زكى ابو شادى

الاسلام الحى

قدم له ونشره

رضوان ابراهيم

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

القاهرة — مايو ١٩٥٥

مطبعة المعهد القبطى الخيرى بالظاهر

تمهيد

هذه طائفة من أحاديثى الاسلامية ، عنوانهـا وموضوعها « الاسلام الحى » ، وهى محصورة فى خمسة عشر حديثاً ، ولكن آفاقها غير محصورة . وجميعها أعددته للاذاعة من وشنطن (العاصمة الأمريكية) منذ منتصف سبتمبر سنة ١٩٥٤ ، فهى تمثل أحدث آرائى الاسلامية التقدمية التى لا أعرف سواها كنها للاسلام الكريم ، والتى على ضوئها أشعر بعظمة الاسلام وبقيمته الانسانية الخالدة .

وقد لاقت هـذه السلسلة من التحبيذ كما لقيت من التأييد الشريف — بوصفى المحرر الأدبى والاسلامى لاذاعة (صوت أمريكا) العربية — ما جعلنى أستجيب للرغبة الملحة فى طبعها ، تاركاً أمر ذلك فى كنف الأستاذ القدير رضوان ابراهيم ، ولا غاية لنا جميعاً سوى إعلاء كلمة الحق ونشر الهداية . والله المستعان ؟

وشنطن فى نهاية ديسمبر ١٩٥٤

أحمد زكى ابو شادى

مقدمة

الاسلام دين الانسانية

أحقاً أن عهد الأديان قد انقضى ؟

وأن الدين قد آض غلا يبهظ رقاب البشرية ويمثل فى الناس وظيفة القيصرية، يأمر وينهى، يعتسف بركب الانسانية طريقاً جائراً لاهدف له، ويصدها عن موكب الحضارة المنطلق نحو غاية مثلى ؟

أحقاً أن الانسانية مستطيعة ـ بحاسة العلم، وذكاء الفطرة ـ أن تحمل أوزارها على ظهرها، وتمضى إلى غايتها، غير وانية، ولا متعثرة، ولا مبلبلة الخطو، ولا متسائلة: أين الطريق ؟ .. وما الهدف ؟

إن هتافاً مجلجلا يصرخ دائماً فى أعماق الانسانية: أن لا !!

ففى أحضان الدين وحده استروحت الانسانية أنسام الحياة الحرة الطليقة العاملة، وفى ضيائه حملت مقوماتها، ومضت ترسم لنفسها الهدف، وإليه تفزع كلما طافت بها مخاوف الحياة .. وما بعد الحياة، تتكىء عليه فى عثراتها، وتتشبث به فى نهضاتها.

وما كانت التجارب الأرضية كافية لتقود التفوق البشرى إلى هدف جدير بآدمية كرمها الخالق ، وذلل لها شوامخ القمم ، وأعماق المنحدرات ، وظواهر الحياة وخوافيها ، لتمتهد فى أحضان رحمته ، وتستريح إلى قوته لا إلى ضعفها ، وتتعلق بارادته قبل إرادتها .

ربما استيقظت الانسانية فوجدت نفسها قبل أن تجد دينها .

ذلك حق ، ولكن من الحق كذلك أنها تخبطت ، وطال تخبطها ، وأدمت أقدامها أشواك الطريق ، ونزفت جراحها على مدارج الضلال قبل أن تنتشلها يد السماء ، فتمسح جراحها ، وتدفعها فى طريق لاحب إلى نبع النور ، وصخرة الحق .

لم تضن السماء على الانسانية - كلما أزمتها كربات الأرض - أن تضىء أمامها سبيل البقاء والسلام ، وأن تمنحها السداد الذى يوقيها العثرات ، ويجنبها النكسة المردية ، ويؤمنها من الضلال فى رحلتها نحو المثالية المنظورة .

وما كانت تبعة السماء نحو الأرض بأقل من تبعة البشرية المثقلة بأوزارها ، وهى تجتاز الدروب ، وتصعد فى المدارج

الوعرة نحو الآفاق السامية الكريمة الجديرة بالانسان .. آخر حلقات التطور الحيوى ، وأسمى ما صورته الارادة العليا ، وأقرب الأحياء من « العقل الكامل » .

والإنسان الأخير - الذى نحياه اليوم - خلاصة لتطورات طبيعية عديدة ، ونتاج تجارب تعليمية مكثفة ، أسهمت فيها السماء بقدر أوفر ، ونصيب أوفى .

ولو كانت القوى البشرية كافية للوصول إلى قمة التطور بمفردها - لما كان الاله فى حاجة ليعرض أصفياءه ومختاريه لقمة الأرض ، وثورة التراب .

ولولا رحمة حانية بالانسانية لما اختار مرسليه من صميمها .. من غمار الذين يدبون على التراب ، لتمتزج الرحمة بالمعجزة ، وليكون الاقناع عميقاً راضياً ، بلا قهر ولا اكراه .

ولولا حكمة تدق وتتسامى ، لنفضت السماء تعاليمها جملة وتركتها تكافح العصور ، ووكلت اليها البشرية تتعثر فى شباكها فلا تنهض .. ولكنها حكمة التطور والأناة ، ولكنه حنو السماء وبرها بالأرض .

أفئن رشدت الانسانية تلوى بالعقوق ، وتنحى بالتمرد ، وتمشى بالتجنى ، وتتنكر لماضيها الطويل ، الذى كان وشيكا أن يضل ويتعثر ، ويتناثر - فى فضاء الأزل - ضباباً معتما ، وهباء مبدداً - لولا الديانات الرحيمة ، عصمته وآزرته ، ووثقت حلقاته.

أفئن شبت الإنسانية تناست طفولتها ، وتبجحت بذكائها ، وجاهرت بأن الأديان لم تصنع ولن تصنع .. فاذا جلجل صوت التاريخ ، تراجعت تحتفظ بخطوطها ، لتقول : إن الأديان كانت تساند الانسانية البائدة ، أما انسانية الانسان الحديث ، المثقف ، العالم ، المتمدين ، الذى أشرب تجارب البشرية فى رحلتها الطويلة الحافلة — فماذا تصنع له الأديان بعد.؟!!

لقد أدت الأديان دورها فى حياة الانسان البدائى ، وانتهت .. لقد أصبحت مرتعشة اليد ، مثقلة الخطو ، وعادت صحبتها فى مضمار الحياة الجديدة - بنت الذرة والأثير - معوقاً يثقل خطو الحضارة ، ويشدها إلى الخلف .. إلى حياة الكهوف ، وصراع الغابات !!

أفحق هذا ؟

أفحق أنها دعوة تقوم على ركائز من فروق ما بين الدين الحق والوثنية المتعالمة ؟

.. أم إنها شبه غائمة، تسربت من أشباح تتحرك على مسرح الحياة باسم الدين؟

وأن السطحية والشك والواقع الالحادى، والقلق المتململ، والاسترواح إلى الخطيئة، والتحلل من فضائل الأديان — فى جهة، والمسخ والتشويه والانحراف الذى بلى به الدين بيد محترفيه، والانتكاس به إلى معاسرات مفتعلة — من جهة أخرى جعل الناس ينفرون منه، ويخاصمونه، وينقمون عليه، ويتهاربون من طريقه إلى آفاق من الالحاد المبيد؟

إن شبها كثيرة من السواد الذى ران على هذا الوجه الأبلج قد نفر الناس عن صداقته، وخوفهم صحبته، وطاردهم عنه، لا يقبلون منه عدلا ولا صرفاً، ولا يثقون منه فى حل ولا حرمة، ولا يرون فيه إلا قوة «بوليسية» رهيبة رعناء، تحول دون مبتغاهم، وتقف فى سبيل أمانيهم، شاهرة سلاح الرجعية البغيض، وعلى شفتيها دائماً كلمتان: الخطيئة، والعذاب. وفى يدها دائمـــاً لفحة من جهنم، يتلظى بهـا طريد السلطات المتوشحة بوشاح الدين، لا تميز بين الدين فى جوهره، وبين رجاله ومحترفيه، فلا ترفعه إلى منزلة سماوية رحيمة عالمة بطباع البشرية وما تدفق فى شرايينها من غرائز وشهوات، ولا تنزل

بهؤلاء المحترفين إلى مرتبة بشرية يجوز عليها الخطأ والصواب.

ولسنا نتساءل عن مهمة هؤلاء، فما نعرف لهم مهمة ليست لسائر المتدينين، ولكننا نتساءل: ماذا بذلوا لهذا الدين من وسائل البقاء والانبعاث والخلود؟

الحق أن رجال الدين لم يصنعوا بدينهم سوى أن حبسوه فى المعابد، وباعدوا بينه وبين الحياة، وألبسوه من تزمتهم وضيق آفاقهم، وحشدوا له من البـــدع والخرافات مواكب، تغشى جوهره، فلا تبين فيه سنة ولا بدعة، بل لقد كان تنطعهم فى الدين داعية لقوم آخرين أن يحرفوه عن مواضعه، فتسهلوا وتسمحوا، وأغروا به الناس، وشككوهم فى مهمته ومساندته للحياة.

وبين التسهل الاباحى والتزمت القاتم، حار الدين، وحار معه عامة المتدينين، وأمسوا مخطوفى البصر، مبلبلى الأفكار بين هؤلاء وأولئك.

ولقد كانت الروحية فى الشرق رئة نازفة، تسربت منها سموم الخرافات — أول ما تسربت — إلى العقلية المتدينة، فبهرتها بالزيف، يوم بذرت فى مزرعة الدين، ورويت بمستنقع

الجهـــل الآسن ، وتسلقت طفيلياتها تحجب نبتة الدين ، حتى لا يبين القديس من المهرج ، ولا تتكشف المعجزة فى أبخرة السحر .

وكان الخنوع الذليل ، والتقشف المصطنع المتهالك ، والتواكل المزرى ، سمات — لرجل الدين ، وشبهات عميت فى ظلماتها القيم فشبهت السنة بالبدعة ، واختلط الدرويش بالتقى ، حتى وهم الناس أن الدين فى صميمه دعوة إلى التواكل والبطالة والشعوذة والتسول الذليل المترامى حول الأضرحة ، المبعثر بين المقابر .

وعرف محترفو السياسة بالتجربة أن العاطفة الدينية سلسلة تقاد بها الشعوب الشرقية ، فأمسكوا بطرفها .

ونحن لم ننس بعد ، ولن ننسى أن الدين عاش طويلا من الدهر عنوان الخديعة والتضليل واستغلال الامم .

لقد ظـــلم الدين نفسه وهو يستهدف للرجوم المتطايرة بين المستخلفين وطلاب المغانم من الأحزاب السياسية والفرق الاسلامية منذ ضحى التاريخ .

واتخذ التدين الكاذب مطايا سياسية ذلولا للخديعة والنفعية فى العصور التى نعيش فى ظلالها اليوم .

.. لن ننسى أن خليفة المسلمين الأعظم ، وقع المنشور الانجليزى الغادر ، يدمغ « احمد عرابى » الثائر الحر بوصمة الكفر ، والخروج على دين مزيف ، ولم يكتف الخليفة بأن يحتمى به من سهام المجاهدين الأحرار ، فلم يقنع حتى صنع منه درعاً للاستعمار ، يستبد فى ظلاله بدماء الشعوب .

ولن يغيب عنا أن جده الأول « محمد الفاتح » تآمر على الاسلام فى الأندلس ، ليسلم له لقب أمير المؤمنين ، مضحياً بخمسة ملايين من المسلمين مالت أعناقهم على مقصلة محاكم التفتيش ، ثم جثا الاسلام ، واستسلم للواقع الذليل ، ليتلاشى عن أمنع قلاع العالم يومئذ !!

وباسم هذه الخلافة ارتكب السلطان سليم مخازيه فى إبادة أبناء العباس ، وانتهاك أعراض مسلمة كريمة انحدرت من صلب عبد المطلب بن هاشم ..

وفى ظلال الدين الجنى عليه مكن الأتراك لروسيا أن تبيد التتار ..

وحكم الأتراك « هولاندة » الغربية فى رقاب « جاوة » الشرقية المسلمة ..

وباع الأتراك العالم العربى الاسلامى للشركة (الانجلو فرنسية) بيع العبيد الأذلاء..

لن ننسى هذا..

ولن ننسى أن الدين هو الدخان الذى أطلقه المستعمر، ليزحف تحت ستاره على مقدساتنا، ويزلزل حصون قوميتنا، ويفتت صلابة مجتمعاتنا.

وهو السلاح الذى شهره المستعمر يوم شاء أن يبعثر وحدة الأمة شيعاً وطوائف، ليظفر بنا آحاداً بعد أن غص بنا جماعات، لولا يقظة واعية شاءت أن تدمر استحكاماته، فترفعت من وضاعة التدين الكاذب، لتعتصم بقمة الوطنية المنيعة.

سيظل فى وعينا أن هذا الدين سند كل طاغية وكل فاجر وكل جبار أثيم وهو ينكل بقوة الأمة، ويخذلها عن حقها فى الحرية الكريمة.

ولرجاله — يومئذ — مهمة غير كريمة.. أن يتنادوا بالسمع والطاعة، وأن يستخرجوا من جرابهم البالى نصا من النصوص يلتوون به عن القصد، ويقسرونه على إرادة الظالمين، ويصوغونه أطواقاً وسلاسل تقعد بالأمة عن الانبعاث فى سبيل حريتها وتفوقها..

وفى المناسبات العديدة المتناقضة ، انطلقت الآية الكريمة : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر» — مقسورة مقهورة متحشرجة ، من طول ما حرفت عن مواضعها ، والتوت عن سبيلها .

وامتلأت الأشداق ترعش اللحى البيضاء بكلمات : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن ولى عليكم عبد حبشى »

ونسيت ركيزة ديمقراطية صريحة متضوئة انبعثت كالأذان فى فجر الاسلام : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم !! »

وما أكثر ما صدرت الفتاوى معلنة بأصواتها الكريهة الذليلة من وراء مقابر العبيد — تبرير الطغيان ، وتحليل الاستبداد بأرواح الناس وأعراضهم وأموالهم .

ومن تمام المأساة أن يصبح الدين سوقاً مقفلة ، يحتكرها أناس يقومونها بأرقام الارباح والخسائر ، ويزوونها عمن يريدون الدين خالصاً للجميع ، ودعامة لانسانية حرة واعية ، وضياء فى سبيل البشرية الهادفة .

فاذا دخل هذه الساحة الكريمة المسماحة داخل ، انطلقت عليه قذائف السدنة تمطر كلا على قدره ، فواحد تصعقه قنبلة الكفر، وآخر تكفيه طلقة الالحاد ، وثالث تليق به قذيفة الشرك، وهكذا .. كل على قدره !!

أفذلك هو دين السماء الذى ارادته سمواً للناس أجمعين، واندفاعاً إلى الملأ الأعلى، واقتراباً من الخالق الأجل؟

كلا.. فما أراده الله تجارة يحتكرها المحترفون.

لا. وليس الدين إباحية تنطلق بها الحيوانية الجامحة عارية من كل قيد، ناشزة من كل فضيلة، ولو كان الدين هذا أو ذاك لما صلح لنا وما صلحنا عليه يوماً.

فهل تكون الانسانية الحديثة أكثر وعياً، وأعمق من هذه السطحية الزائفة التى تحجب الدين عن الأعين العابرة، وتبدله من ثيابه هلاهيل ومرقعات؟

ما عبثاً أراد الله أن نتدين، وما كان لهذه الانقلابات الخطيرة فى حياة البشرية أن تحدث، وأن تراق فى سبيل الأديان دماء الملايين من المؤمنين، يساقون إلى ظلمات السجون والقبور زمراً زمراً فى كل عصر.

وأن تتعرض المسيحية لنكال القيصرية أياماً، وتصطلى نار الأخدود ليالى سوداء..

وأن يجتاز الاسلام أقسى المحن، وتزلزل من تحته أرض العبيد وهو ثابت شامخ تسانده السماء.

ما كان الرب بمنضج هذه الأحداث، ولا جاعل وقودها نفوساً

بشرية عزيزة ، لو أراد أن نتـــدين بالخرافة التى تمشى فينا باسم الدين .

إذن فلا بد للانسانية من دين .. ولـكنه الدين الخالص الحى النامى .

وإذن فلا مفر من تجديد لهذا الدين ، ولا مفر من إعادة شبابه ، ولـكن.. أين المصل ؟

لنضرب صفحاً عن المتجرين بالدين ، وعن المخدوعين بالمدنية المادية العرجاء .

ولنصحب هذه القلة الواعية العالمة المؤمنة ، التى تمسك بجوهر الدين فى قبضة وبحقائق العلم فى الأخرى ، ثم تقرب ما بين الجوهرين الـكريمين ، ليتفاعلا تفاعلا إنسانياً إلهياً كريماً ، فتنصهر فى تفاعلهما كثير من القيم ، وتذوب كثير من الأغشية ، وتتساقط حفنات محترقة من الزوائف ، ويخلص من بعد هذا وذاك حق صراح لا باطل فيه .

من هؤلاء الرواد فى حاضرنا كان محمد عبده ، وحواريه رشـــيد رضا ، وجاويش ، وطنطاوى جوهرى ، والمراغى ، ونظراؤهم ممن تعمقوا الدين ، وخبروا مرونته ، وجربوا قدرته على المغامرة فى زحمة الحياة الحديثة .

ومن أعلام هذا الاتجاه الرشيد، الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى تفرد بأسلوب أدق وأعمق وأوضح ، هيأته له مقاييسه الدقيقة الحقة ، وتربيته العلمية المحضة ، وتجاربه الحيوية المعملية الواسعة .

وبروح الشاعر ، وفكرة الفيلسوف ، وتجربة العالم ، وريشة الفنان ، ودقة الخبير . يتناول الزوايا المختلفة للاسلام ، فيقضى فيها حق الدين ، وأمانة العلم ، وواجب البحث الحر ، وضريبة الفكر ، وزكاة الروح .

ومن أفق علمى بأوسع ما فى الروح العلمى ، دينى إلى مدى لا يحده تعصب ولا تزمت ، يعالج الفكرة الدينية ، فى ضوء المقومات الانسانية العالية .

ولقد أتيح له أن يذيع فصوله الاسلامية هذه التى يوفق فيها بين العلم والاسلام ثم بين الاسلام والديانات الأخرى ، ثم يوفق بين خلاصة الأديان وبين الانسانية توفيقاً جديداً ، فى زمالة سعيدة تهون المصاعب ، وتحقق أمانى البشرية فى الحياة .

ولقد اقتبسنا بالأمس من آرائه التى زاولها منذ ربع قرن كتابنا ، عظمة الاسلام ، فلقى الكثير من التقدير ، وشيئاً غير قليل من الامتعاض .

والسلسلة التى نقدمها اليوم تحمل طابعاً جديداً فى فكرتها وطريقة عرضها وإن دارت حول موضوعات الاسلام الخالدة .

وهى استجابة واعية لما يضطرب به عقل إنسان هذه الآونة المرتعشة فى الشرق والغرب .

وليست هذه الأحاديث فى سبيل الدين بقدر ما هى فى سبيل الانسانية .

ولسنا فى حاجة أن نتحدث فيها حديثاً موضوعياً ، وانما نؤثر أن ندعها تقدم نفسها لقرائها ، تتحـــدث إليهم حديثها الواضح الميسور الهادف .

ولا نرجو للقارىء أن يستريح إلى ما فى هذا الكتاب من فكرات ثائرة ، فما فى حسبان أبى شادى أن يريح قراءه ، ولكن أن يثيرهم ، ويحرضهم وأن يدفعهم إلى الطريق ظامئين يبحثون عن منابع النور ، ولا عليه إن لم يظفر باعجابهم ، وسرعة استجابتهم ، وانبهارهم العاطفى .

ولا يتساءل - من بعد - أصحبه القارىء فى دربه الواضح أم انحرف . . كل ما يعنيه أن يأخذ القارىء عن بينة أو يترك عن بينة ! !

رضوان ابراهيم

أركان الاسلام

تعريف أركان الاسلام يختلف فى نظر بعض الناس بالنسبة للشكليات أو للباب الخالص من الدين .

والحقيقة أنه لا يوجد ثمة أى اختلاف ، لأن الشكليات لا يمكن أن تعد أركاناً لأى دين .

والمسلمون يعتقدون أن دينهم ليس بدين جديد ، وإنما هو امتداد لدين التوحيد الذى بشر به العهدان القديم والجديد .

ألم يجىء فى (التوراة) المقدسة . « أنا الله وليس سواى . أنا الله ليس مثلى . . . أنا الله ليس سواى يقول الرب »؟

ألم يقل (الانجيل) أن ليس إلا إله واحد ؟ (فالقرآن) يؤكد كل هذا وعلى الأخص فى سورة الاخلاص .

والاسلام يعتبر من أركانه الإيمان بقدرة الإنسان على التسامى ، ولا يعده خاطئاً أثيماً « فى حاجة إلى أن يقدس » .

فالإنسان الخاطىء الأثيم فى نظر الاسلام هو الإنسان الأول

المتوحش المعتدى، كما تصنع وحوش الغابة ، ويعتبر أنه على وفاق تام مع الكتب المقـــدسة السابقة فى هذا الاعتبار ، وأن تقدم الانسان مطرد حسب السنن الالهية ، وأن خير أداة للتقدم هى العلم ، ولذلك نوه (القرآن) الكريم أعظم تنويه بالقلم وبالعلم والبحث .

وقد ورث الاسلام أقاصيص دينيـة شتى ، فاحتفظ بشكليتها وأسبغ عليها فى الوقت ذاته معانى فلسفية نيرة . مثال ذلك تضحية الدم ، فقد اعتبرها رمزاً لتضحية الشهوات وتطهير القلوب ، واعتبر من نتائجها البر بالفقراء فى موسم الحج .

ويتفق المسلمون الأبرار مع سواهم من الموحدين الأبرار فى « أن الديانة الحقيقية ليست أمراً خارجياً فقط ، بل هى داخلية أيضاً » ، وفى « أننا لا نستفيد شيئاً من صلواتنا وأصوامنا الخارجية وما أشبه بدون القداسة الداخلية » ، « وأن الذبيحة التى يحبها الله هى القلب المنكسر أى النفس التائبة المتضعة » .

وليس معنى ما تقدم أن الانسانية قد ابتعدت عن الخطيئة والإثم ، فثمة الملايين من البشر وجملة من الشعوب ما تزال غارقة فى غمارها ، ولا منقذ لها غير التثقيف والتدين ، وترقية الأخلاق ، وحب الانسان لأخيه الانسان حبه لنفسه .

ومع ذلك فقد ترقت الانسانية إلى درجة عظيمة بالنسبة لما كانت عليه منذ آلاف السنين، بله آلاف العقود منها .

وإشارة (القرآن) الكريم إلى الانسان فى قوله : « قتل الانسان ما أكفره » وفى قوله : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » — هـــذه الاشارة منصبة على عهود الطغيان ، ومقصود بها الحث على التطهير حثاً عنيفاً إلى أبعد الغايات ، وليس الغرض منها بداهة الحكم على البشرية بالنجاسة الابدية وبالخطيئة المستمرة ، (فالقرآن) الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تشعر بعكس ذلك تماماً ، وتفسح أمام البشرية الأمل فى بلوغ الكمال .

والاسلام دين عقلى وجدانى ، وليس عقيدة خرافية دستورها الأساطير والأوهام ، والعلم سلاح الدين فى عرف الاسلام ، وهو سراجه ودستوره أيضاً . قال تعالى فى كتابه العزيز « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، والاسلام الذى يقول نبيه الكريم : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » لا يقر بمفسر لمبادئه غير العلم ، ورسوله الذى يعتبر مداد العالم أقدس من دم الشهيد ، قد أثبت بأقوى لغة أن العلم من أركان الاسلام الأساسية ، ولذلك لم يبالغ من يقول إن كل نظرية أو تفسير لا يتمشى مع العلم يجب أن يعتبر

غريباً ، عنه وينبغى أن ينبذ نبذاً .

والاسلام الحى النير ، يعتبر الانسان مسيراً بالنسبة للعـــالم ونظامه ، مخيراً بالنسبة لسلوكه الشخصى على ضوء العلم الذى يحثه الله عليه، وترشده الطبيعة إليه . والانسان فى نظر الاسلام هو وحده القادر على خلاص نفسه من الشر وعواقبه ، فعليه أن يربى نفسه بنفسه ، متشرباً بالإيثار ، ومضحياً بالسفاسف ، أما التضحية بالدم فليست عند المسلمين غير مجرد رمز تقليدى موروث عن اليهودية والمسيحية كما ذكرنا قبلا،ولا يعدو مغزاها التضحية بالأهواء وتطهير القلوب ، ويعتبر الاسلام أن الانسان نبيل المعدن، وأنه أرقى ما أبدعته الطبيعة ، ولا يتلف معدنه كر القرون ، إذا ما أسعفه العلم والتهذيب ، وأنه فى غير حاجة إلى مخلص خارجى ، وأن الانسان سليل الطبيعة وابن الله ،وقد تعالى الله عن أن يكون نظام عالمه فوضى من الخرافات ، أو قائماً على الذبيحة والدم،ووضع* الانسان إلى الأبد موضع الخاطىء الأثيم.

والاسلام يجل الله سبحانه وتعالى عن أن يكون ذا أ مستبدة تلهو كما يلهو نيرون بتعذيب الناس وحرق رومة !

وللشاعر ، أو للرسام ، أو للفنان إجمالا أن يصور سفك الدم ضرورة لنيل المغفرة ، ولكن الاسلام — الدين العقلى الأعظم

ـ يعد هذا هراء، ويتفق مع المسيحية الأصيلة فى أن« دم الحيوان لا يكفر عن خطية انسان،وأن كل الضحايا التى أمر الله بها ليست إلا رمزاً للضحية الحقيقية » ،وهى شهوة الانسان المتدلية، وأن خلاص البشرية من الشقاء، إنما يكون بالايمان العملى الصحيح، فالدين المعاملة، وخير المعاملة ما استند إلى المحبة، والثقة،والمعاونة المتبادلة.

والاسلام يؤمن بصلاحية البشرية للتقدم المتواصل وبنبالة معدنها، ويحرص كل الحرص على كرامتها، ويعتبر منافياً للحق ما ينسب إلى الأديان السماوية الأخرى مخالفاً لذلك،ويعده دخيلا عليها لأنه ينافى المنطق والعلم من جميع النواحى، ويعتبر أن ما يخلص الانسان هى حسناته وحدها.

وهذا مبدأ يتفق مع العقل، والعلم، والسيكولوجيا، والسثيولوجيا، وكل ما ينهض بالانسانية ويرقى الوجود باستمرار من عوامل فعالة.

ومن أركان الاسلام الهامة التمسك بالمساواة وتكافؤ الفرص للبشر جميعاً، فكلهم أبناء الله،ولا حجاب بينهم وبينه، وأمهم هذه الطبيعة التى يمرحون فى كنفها ويغضبون منها، ويشتدون فى غضبهم إذا ما ارتدت عليهم،وعاقبتهم نواميسها،

لثورتهم الضالة عليها .

إذن لا كهنوت، ولا قسيسية فى الاسلام، كما لا شرك ولا خرافات ولا بهلوانيات باسم الدين فيه .

وتكافؤ الفرص لا حدود له ولا استثناء فيه،وهذا ماعرفته باكستان الحديثة، التى اختارت البيجوم لياقت على خان سفيرة لها لدى هولانده .

هذه لمحات من أركان الاسلام المعنوية ، أو على الأصح من بعضها ، وهى أهم من أركانه الشكلية، ذكرناها على سبيل المثال تدليلا على عظمة الاسلام .



عالمية الاسلام

ذكرنا فى حديث سابق نماذج من أركان الاسلام المعنوية التى اعتبرناها أهم بمرار من أركانه الشكلية، وهى هى التى سوغت وصف الاسلام بالحياة، فاذا قلنـــا «الاسلام» عنينا فوراً «الاسلام الحى» ولا غيره، «فالاسلام الميت» ليس من الاسلام فى شىء ، والكلام عنه لغو وهراء بالنسبة لهذا الدين الكريم، ومن يشغلون أنفسهم بعبث الشكليات وتفوتهم معنويات الاسلام الرفيعة وآفاقه الواسعة فلا صلة للاسلام بهم ، بل هم طفيليون عليه وإن حملوا اسماء اسلامية لأسر اسلامية وحسبوا أنفسهم من أهله ، وراحوا يفتون ويؤلفون أضاحيك وأضاليل ليست مبعدة الاسلام عن أن يكون الدين العالمى فحسب ، بل تجعله غير صالح حتى لقرية فى قطر متخلف ، وهو ذلك الدين الذى هيأ الجو والمجال للبعث العلمى الأوربى وللحضارة الانسانية النيرة بعد عهود الظلام .

ولو أخذنا بعنجهية أولئك الناس - تلك العنجهية التى يبرأ

منها الاسلام - إزاء المرأة مثلا لوجب على النساء المسلمات أن يتبرأن من الاسلام تبرؤاً تاماً . ولكن لحسن الحظ تسير عجلة الزمن إلى الأمام ولاتبالى بالرجعيين والحفريين والعنجهيين .

ذكرنا أهمية المساواة كركن من أركان الاسلام المعنوية .

وثمة ركن آخر خطير هو « عالمية الاسلام » وهو ما يعبر عنه عادة بصلاحيته لكل زمان ومكان ، ولو ضاع هذا الركن لضاعت بضياعه رسالة الاسلام للبشرية .

هذا الركن الجليل الأهمية ينساه أو يتناساه ولا يفهمه المتنطعون ، فى حين أن عالمية الاسلام من أهم خصائص الاسلام فاذا فقدها فقد شخصيته وصار شيئاً آخر لا يعرفه المستنيرون

إن عالميــــة الاسلام ركن أساسى للاسلام ، وكل تفاسير مناقضة لروح هذه العالمية عدوة لدودة للاسلام .

والأصل فى عالمية الاسلام ليست صلاحيته لكل زمان ومكان فحسب بالنسبة لأهله بل قابليته الدائمة أيضاً لاجتذاب غير أهله إليــــه وهذا يعنى اشعاعه الدائم من بابه المفتوح بالترحيب والهداية وبمعانى الاخوة الانسانية .

الاسلام الحق ، الاسلام الحى ، الاسلام العالمى ، لا يقنع

بمكان أو زمان أو بيئة أو شعب أو أفراد ، وانما يعنى بالانسانية جمعاء فى جميع الأقطار ويهتم بخير البشرية كافة ومهما أنذر مناوئيه ليردعهم عن غيهم كما ينذر الأب أبناءه ، فان روح الاشفاق والرحمة لا تفارقه ولو سترها الوعيد الشديد .

والاسلام كعقيدة عالمية يساير التطور المستمر لأنه يعتمد على العقل والعلم المحقق ، واحترامه للعادات المعقولة جزء من احـــترامه للمنطق وللواقعية المفيدة . ولذلك كانت الشريعة الاسلامية فى لبابها واسعة يرضى عنها سكان الاسكا رضاء سكان أفريقيا أو أوروبا أو أمريكا أو آسيا أو أية بقعة فى العالم .

وفلسفة هذه الشريعة فلسفة استيعابية جامعة غير مجانبة إلا ما ناقض العقـل والعـــلم والآداب العالميـة الوضع ، مثال ذلك مجانبة الاسلام للخرافات والبدع والتهريج المضلل واستبـاحة الأعراض والاعتـــداء على الخلق وحقوقهم ، وأما ما عداها فلا يحرمه الاسلام إطلاقاً . وفى (القرآن) الشريف أمثلة من المحرمات التى كانت لها أسباب معقولة ، فحيثما وجدت هذه الأسباب استمر التحريم وحيثما انتفت الاسباب انتفت النتائج المترتبة عليها . ومن الاختصاصيين الجامعين

رجال العلم والتحقيق يستمد تفسير الاسلام وتطبيقه كشريعة عالمية احتفظت من الشرائع السماوية السابقة باللباب الصافى الخالد واحتفظت ببعض الشكليات النفيسة الرمزية ، وتفردت بعد ذلك باتخاذها العقل - الذى يسانده العلم المحقق - أداة للتفسير والتطبيق .

لقد جاوزنا منتصف القرن العشرين وازدادت طواعية العلم لخدمة الاسلام، ومع ذلك لا يزال يوجد أناس كثيرون يثرثرون باسم الاسلام احترافاً أو تجارة أو لهواً أو غباء - يثرثرون بأباطيل وسخافات مضحكة مبكية هى أقرب ما تكون إلى الوثنية البدائية وإلى كل ما جاء الاسلام للقضاء عليه ! وليس دونهم إجراماً غير المسلمين الذين لا يفهمون مثقال ذرة من روح الاسلام ثم يتولون تدريس ما لا يفهمون وما لا يستسيغون !

والآن كيف يلهم القرن العشرون تفسير الاسلام وتطبيقه ؟

أولا — أن الاسلام شريعة الديمقراطية بأوسع معانيها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأدبياً وغير ذلك . ومن ثمة كانت المدنية الاسلامية قريبة الشبه بالمدنية الأمريكية فى أسسها ، وكان ذلك سر التعاطف بينهما . ولا يكفى أن يقال إن الاسلام دين

الديمقراطية إذ لا يعنى هذا القول شيئاً إذا ما اقترن التطبيق بأى استثناء، سواء بين الجنسين أو بين الألوان أو بين الشعوب أو بين الطوائف.

ثانياً ــ أن الاسلام هو الصلة بين العلم وما خلفه، وبين المنظور وما وراء المنظور، فهو الرابطـــة بين الحسيات والروحانيات، وهو الترجمان عن كنه الحياة بما يتفق وتقدم الكون وسعادة البشرية. وكل ما أخل بذلك جملة أو تفصيلا ونسب إلى الاسلام فالاسلام برىء منه.

ثالثاً ــ أن الاسلام طريقة للحياة الهنيئة الشريفة، وليس مجموعة من المراسيم والشكليات والألغـــاز والأحاجى التى لا يستسيغها أى عقل نير يحترم نفسه، ويحترم غيره، ويؤمن بمستقبل الانسان الحر الكريم الدائم التسامى.

رابعاً ــ أن الاسلام يبشر ببقاء الأصلح، وبأن الأرض لا يرثها من عباد الله إلا الصالحون، وليست وقفاً على المصلين المسبحين، بل قد لا يكون لهم شىء منها إذا كانوا يقولون مالا يفعلون، وهو دين فى تفسيره وتطبيقه دائم التطور، كما يتطور العلم وتطبيقه.

خامساً — أن الاسلام نظام إلهى صالح للبشر جميعاً إذا ما فسر التفسير النير السليم، وما مذهب أكبر خان ولا المذهب البهائى ولا مذهب الهيومانزم ولا أمثالها من المذاهب إلا مستمدة من لباب الاسلام وتعاليمه الانسانية الحرة النبيلة .

سادساً — أن الاسلام دين التسامح التام ،لأنه يحترم العقل وتفكيره مهما حذر وأنذر من عواقب الضلال . ولذلك بلغت المدنية الاسلامية ذروتها حينما بلغ ذلك التسامح ذروته تحت راية الاسلام . وها نحن نجد الآن فى پاكستان الجمهورية الاسلامية قضاة غير مسلمين يطبقون الشريعة الاسلامية بكل أمانة وإحكام

إزاء كل هذا نهيب بالمسلمين أينما كانوا ، أن يتعرفوا كنوز دينهم ، وأن يتبينوا حقيقة فلسفته ، وأن يدركوا أن هذا الدين العظيم هو دين عالمى تفرض مبادئه الرفيعة ذاتها فرضاً على عقول المستنيرين كيفما كانت عقائدهم الموروثة ، وبعبارة أخرى أن الروح الانسانية للاسلام تجعله سراجاً للبشرية جمعاء ، ومن ثمة وجب أن يبقى باب محرابه مفتوحاً لبنى الانسان طرا ، وأن لا يحس مخالفوه بأن كرامتهم ضائعة، وحقوقهم مغمورة عند أهله، وأن يفترض دائماً أن مخالفيه سوف ينضمون إليه على كر الزمن

من تلقاء أنفسهم ، وعن طريق الاقتناع بتفوقه المطلق، حتى ولو كان هذا الافتراض بعيد التحقيق أو مستحيلا لاعتبارات تقليدية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، وبذلك يبقى الاسلام رابطة الأخوة للبشرية بأسرها .



الشركة المقدسة

ليست أركان الاسلام المعنوية خمسة أو أكثر أو أقل، بل متعددة، وكل ركن منها من صميم بنية الاسلام ولا قوام له بغيره، ومن أركانه الخطيرة المشاركة المقدسة بين الرجل والمرأة.

إن المظهر الأسمى للمرأة هو الأمومة، والدين الذى يقول نبيه فى صراحة «الجنة تحت أقدام الأمهات» يبلغها منزلة سامية.

ليست المرأة تابعة للرجل فى الاسلام كما هو شأنها فى ديانات أخرى وإنمـــا هى شريكة حياته على قدم المساواة وإن تنوعت اختصاصات كل منهما دون أن يكون هذا التنوع احتكاراً أو تقييداً جامداً، فان الاسلام يتميز بمرونته التطبيقية حتى ليتنوع تكيفه من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل.

ففى فجر الاسلام دعت الحالة الاقتصادية أن يكون الرجل قواماً على المرأة بمعنى أنه المسئول عن الانفاق على معاونتها إياه فى بيته وفى حياته عامـــة كرعى الماشية وما إلى ذلك، ونهى الاسلام الرجل عن أن يكون مستعبداً المرأة أو قاسياً عليها. وبتغير

الأسباب تتغير النتائج حتى ليصح فى الاسلام — تبعاً لذلك — أن تكون المرأة قوامة على الرجل فى ظروف خاصة. والمجتمع الذى يقف فى وجه هذه الشركة المقدسة إنما يناهض الاسلام، ولا يصح أن يعد مجتمعاً إسلامياً صادقاً، وانتقاص أركان الاسلام المعنوية إنما هو تقويض له، وإذا كانت المرأة عند بعض الطوائف مظهراً للاثم، فهى لدى الاسلام مظهر النبل، وهى عنده الأصل الذى يحقق العمران ويهيء السعادة للبشرية. أجل، ليست المرأة فى نظر الاسلام شراً ضرورياً كما يقول الجاهلون، انما هى نعمة الرجل:

وانما المرأة الدنيا بما جمعت إذا تربت وصانت حسنها الغالى

والشركة المتعادلة بين شق الانسانية لا مفر منها فى أى مجتمع اسلامى سليم وهى مقدمة على أركان أخرى، مذ كانت الأسرة الصالحة عماد الأمة الصالحة، والشعوب الصالحة عماد الوحدة الانسانية الصالحة وأساس عالمية الاسلام.

كانت الشرائع القديمة - وفى مقدمتها شريعة (مانو) الهندية - تعتبر المرأة فى حكم الملك للرجل (١) ولا تستثنى من ذلك شرائع

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع — محمد جميل بيهم ص ١٦٧ — بيروت ١٩٢١.

الصين واليابان وفارس واليونان والرومان . فلما جاء الاسلام لم ينصف المرأة فى حقوقها فقط بل عدها قرينة الرجل بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ومغزى ، واعتبر شركتهما المقدسة أحد أركانه المعنوية الخطيرة .

كانت شريعة (مانو) تقول : « إن المرأة تابعة لوالدها فى طفولتها ولزوجها فى شبابها ؛ فاذا مات زوجها تبعت أبناءها وإن لم يكن لها أبناء تبعت أقارب زوجها ، لانه يجب ألا تترك المرأة لنفسها فى حال من الأحوال » وكان لليونانى « الحق فى أن يهدى امرأته بموجب وصيته إلى أى صديق يختاره . وبذلك لم يقتصر على التصرف بها فى حياته بل جعلها تحت الوصاية من المهد إلى اللحد » . وكان للفارسى أيضاً التصرف بها كأنها سلعة وأن يحكم عليها بالموت كأنها حيوان أعجم . وزيادة على ذلك فقد اعتقد بعضهم بأنه ليس لها روح خالدة ، وقرر آخرون أنه لاينبغى أن تعيش بعد زوجها ، وتسامح البعض بجواز تقديمها للضيف تكريماً له ! » ولكن الاسلام نقض كل هذا الضلال نقضاً تاماً ومحاه محواً ، فاذا باصلاحه يشمل لا المعاشرة والعلائق الزوجية وحقوق المرأة المدنية فحسب ، بل أيضاً كل ما يجعلها نداً للرجل

فى بناء صرح الانسانية ، فكان الاسلام بذلك ثائراً مصلحاً ملهماً عظيما . والاسلام لا يقبل دون ذلك حتى ظن بعض الباحثين أن الرسول عليه السلام كان متحيزاً للمرأة ، ورأى آخرون أنه كان أكثر مناصرة للرجل . وكل هذا غير صحيح . أما الحقيقة فلا هذا ولا ذاك وانما يحتوى الاسلام فى لبه جرثومه التطور ، ويحتوى القرآن الشريف تعاليم مطابقة أحكم مطابقة لظروفها وعلى هذه الظروف يقاس . وعند فجر الاسلام أعطيت المرأة من الحقوق والمعاملة ما لم تكن تحلم به ، بل ماتجاوز - بسخاء - ظروفها ، وبهذه الروح يجب أن يقاس .

وهذه الروح هى التى يجهلها كثيرون ممن يكتبون أو يحاضرون عن الاسلام وهم على غير هدى من فلسفته ولو كانوا من أهله كأنما على بصيرتهم غشاوة .

نعم إن روح التطور والمرونة وثيقة الصلة بتطبيق تعاليم الاسلام بل هى مفتاح تطبيقه .

وإلى أن يفهم الناظرون والمتكلمون أن الاسلام دين تطورى تقدمى وأن كثيراً من الأحكام التى جاء بها هى أحكام نسبية ألهمتها الظروف فى حين أن قلتها أحكام دائمـــة وهى

مما اتصلت بالآداب والمثل العليا - إلى أن يفهم الناظرون والمتكلمون ذلك فسيستمرون خابطين خبط عشواء فى وصف الاسلام بما هو غريب عنه ، ومن بين ذلك حديثهم الوهمى عن « حقارة » المرأة فى الاسلام ، وهو الذى رفعها إلى أسمى المراتب وهيأها لأن تتبوأ حتى رئاسة الدولة .

وقد أضحكنا أن نقرأ أحاديث منسوبة إلى الرسول عليه السلام ، فيها الحط من منزلة المرأة ، مما لا يقبله العقل ولا يقره التاريخ النزيه الذى يعرف للنبى العربى أنبل المواقف فى إنصاف المرأة وحماية شركتها المقدسة مع الرجل .

ومما يزيد الطينة بلة أن تدريس الثقافة الاسلامية والشريعة الاسلامية هو غالباً فى أيدى المقلدين النقليين والجامدين المتحجرين الذين لا يفهمون من روح الاسلام التقدمية شيئاً أو فى أيدى عدد من الأجانب معظمهم — إن لم نقل كلهم — مشغول غالباً بتسجيل البدع والأوهام والخرافات وأدوار الجمود والانحطاط وكل ما ينافى روح الاسلام ، كأنما مهمتهم التدريسية الجامعية محصورة فى هذا العبث ولا تعرف شيئاً عن الحركات التقدمية الاسلامية التى هى من صميم الاسلام ، وقد خدمت الانسانية أجل الخدمات على كر العصور .

ولذلك وجب علينا أن ننبه فى هذا المقام إلى هذه الحقيقة المؤسفة القائمة فى الغرب والمؤدية إلى أسوأ النتائج السياسية والثقافية والدينية ، كما لنا أن ننوه مغتبطين باهتمام الدوائر الجامعية الأمريكية اهتماماً بالغاً بأمر الثقافة الاسلامية الحديثة وبوجوب إسناد تدريسها إلى أصحابها من جهابذة المسلمين .

وإن ننس لا ننس كيف كنا نستمع قبلا إلى محاضرات عن « المرأة المسلمة » يلقيها أناس لا صلة لهم بالاسلام ولا تعاطف بينهم وبين أهله ، فكانوا يقلبون الحقائق رأساً على عقب ، ويشوهون جمال الاسلام ، ثم أتيح لنا أن نقف على محاضرة للسيدة عزيزة شكرى عقيلة الدكتور أحمد حسين (سفير مصر فى وشنطن) فى هذا الموضوع ، فعرفنا كيف تنصف المسلمة المثقفة بنات جنسها المسلمات وتنصف الاسلام ، وتمنينا لو أن مثيلاتها وأمثالها انتشروا للمحاضرة فى البيئات الغربية أسوة بما أخذت أمريكا به أخيراً من تشجيع المسلمين والمسلمات من ذوى المواهب للمحاضرة النيرة عن الاسلام — إذن لأدرك الغرب - كما يدرك الشرق - معنى « الشركة المقدسة » كركن خطير من أركان الاسلام .

نشأة التصوف الاسلامى

نشأ الاسلام فى بيئة يغلب عليها الطمع المادى هى بيئة قريش ، فكان بمثابة ثورة على رأسماليتها وحبها الاحتكار أو التفرد بالاستغلال ، ولذلك جاء فى الكتاب العزيز : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » ونحو ذلك من الآيات الحاثة على الزهد والتقشف ، وكان الرسول الكريم بسلوكه المثالى فى حكم المتصوف الاسلامى الأول (١) ، وكذلك كان بوجدانه التأملى .

ويقول إجناس جولد تسيهر (Ignaz Goldziher) — وهو من نعلم منزلته فى النقد التاريخى الاسلامى : « كان الاسلام فى أول أمره تسوده فكرة اطراح العالم والزهد فيه ،

---

(١) راجع كتاب (العناصر التصوفية فى محمد — Mystical Elements in Mohammed) للاستاذ جون كلارك آرشر ، طبع جامعة ييل فى أمريكا ١٩٢٤ ، وكتاب (التصوف الاسلامى Islamic Sufiam) للسردار إقبال على شاه ، طبع لندن ١٩٣٣ .

وذلك فى الوقت الذى غلبت فيه فكرة التوكل والشعور بالخضوع المطلق . »

كتب على بن أبي طالب : « إنما مثل الدنيا كمثل الحية ، لين لمسها ويقتل سمها ، فأعرض عنها وعما يعجبك فيها ، لقلة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها . وكن أسر ما تكون فيها ، أحذر ما تكره منها ، فان صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه . »

وقال منصور بن عمار : « إن لله عباداً جعلوا ما كتب عليهم من الموت مثالا بين أعينهم ، وقطعوا الأسباب المتصلة بقلوبهم من علائق الدنيا ، فهم أنضاء عبادته ، حلفاء طاعته ، قد نضحوا خدودهم بوابل دموعهم وافترشوا جباههم فى محاريبهم ، يناجون ذا الكبرياء والعظمة فى فكاك رقابهم . »

أمثال هؤلاء الرجال على قلتهم وجدوا فى عهد النبي عليه الصلاة والسلام وكان يعطف عليهم ويدعوهم إلى مائدته . وأولئك فى نشوتهم يمثلون المتصوفين الخلص ، ولا صلة لذلك بقرب نشأة الاسلام ، فالأمر أمر مزاج واستعداد وجدانى . ومع أن الرسول الكريم قال فى صراحة حكيمة بليغة :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وأوضح أن الزهد المطلق فى الدنيا ليس من الشريعة الاسلامية بل هو عكسها، فان موقف أولئك المتصوفين — الذين كانوا يعدون أنفسهم « أولياء الله » — لم يتبدل ، لأن التصوف الدينى كان من صميم فطرتهم، ولأن الآيات القرآنية الجميلة التى تحث على تسبيح الله وعبادته فى آياته وملكوته تركت أثراً عميقاً فى نفوسهم . أولئك الأتقياء احتضنهم القرن الأول للهجرة خاصة . وأشار المؤرخ أبو الفدا إلى فقرائهم المتنقلين الغرباء الذين كان يعطف عليهم النبى الكريم ويحسن إليهم ويوعز إلى الصحابة بمثل ذلك نحوهم .

ولما أحس ولاة الأمور المسلمون بأنه لا أمان للاسلام ولا للمسلمين بينما يحفهم الأعداء الألداء مهددين حياتهم ، رأوا أن الفتح لا مناص منه كدفاع استراتيجى عن وطنهم وقد اعتمدوا على الدعوة قبل السلاح لاجتذاب المحالفة والعون إن لم يكن الانضمام إلى الاسلام ذاته ، وهكذا تلاشت « أفكار الزهد والتقشف الأولى » ازاء غنائم الفتوحات وبرزت الناحية العملية القوية فى الاسلام .

ومع ذلك نعلم جيداً أن عمر بن عبد العزيز — على ما روى الطبرى — كان يتشدد فى وضع الجزية عمن أسلم ، وسارت فى الآفاق كلمته المشهورة : « إن الله بعث محمداً داعياً ، ولم يبعثه جابياً » . وهكذا بقيت للاسلام — عملياً ، حتى فى انتصاراته المادية العظيمة — نزعته المثالية ونقاؤه ، ما بقى يرعاه الخلفاء الصالحون والولاة المتقون ، وكان أبو ذر الغفارى الحارس الأمين فى عهد معاوية لتلك النزعة وذلك النقاء . وفى ذلك الجو بقى التصوف الأول على ما هو عليه ولكن بين قلة .

وتمر القرون، وينحدر الاسلام عن ذروة العلم، فيتلقفه الجهل مستعبداً مؤذياً ، وتحل بدل شاعرية المتصوفين الأولين نفعية خلفائهم المرتزقين — والشاذ لا يقاس عليه — حتى يصبح التصوف الاسلامى بمراسيمه وأوضاعه وجماعاته هزؤاً وسخرية فى الغالب . وقد عرض لنا الدكتور زكى مبارك فى كتابه (التصوف الاسلامى) ألواناً من هذا العبث الذى تصدق نسبته إلى الروح الاسلامية .

فالتصوف الاسلامى الذى نشأ منذ فجر الاسلام فى عهد الرسول صلوات الله عليه ، كان فى البداية انقطاعاً للعبادة

وإعراضاً عن زخرف الدنيا وطيباتها ، أى تقشفاً وزهداً ، فالتصوف والرفاهية لا يجتمعان .

وعندنا أن نشأة التصوف الاسلامى هى — أولا — رد فعل للاستغلالية الغاشمة التى كانت متفشية بين سادة العرب ، وهى — ثانياً — استجابة متطرفة لدعوة الاسلام الجميلة للتأمل فى الطبيعة والاغتراف من أسرارها وتسبيح الله سبحانه وتعالى بالاندماج فى آياتها ، فالسبب الأول اقتصـــادى ، وأما السبب الثانى — وهو الأهم — فوجدانى صرف ، لامناص لأى مسلم تقى من التأثر به ، إن قليلا أو كثيراً حسب طبيعته ومزاجه وثقافته .

وفى عدد أغسطس ٥٤ من مجلة (البعثة) الكويتية التى تصدر فى القاهرة مقال نقدى للأستاذ محمد رضوان أحمد عن التصوف ونشأته يدعونا إلى لفت نظر الكاتب الفاضل إلى كتاب الأستاذ الدكتور أرثر آربرى الموسوم (مدخل فى تاريخ التصوف (١)
An Introduction to the History of Sufism by Arthur I. Arberry, Litt. D.)

---

(١) طبع لندن ١٩٤٢

للمقارنة بين ما ذهب إليه وبين ما سجله آربري وغيره من الباحثين المدققين عن نشأة التصوف الاسلامى .

وقد ختم الكاتب مقاله بالانحاء على المتصوفة الذين اتخذوا التصوف شركاً ليعيشوا على حساب الغير ، وقال : إن الاسلام لم يبتل بهم إلا بعد ترجمة فلسفات القدامى فى العهد العباسى .

وعندنا أن ترجمة الآثار اليونانية خاصة خدمت الثقافة الاسلامية ، وأن عبث المتصوفين المتأخرين هو وليد الجهل العام والوصولية والنفعية ، ولو كان للفلسفة الحقة يد فى أمره لمحته محواً .

وأما التصوف الاسلامى الحقيق فلا شأن له بالخزعبلات السائدة الآن — وقبل الآن — باسمه ، وقد بلغت غاية تدهورها فى هذا الزمن .

ولم نقل نحن إن المتصوفين الاولين بزهدهم فى طيبات الحياة كانوا أوفياء لروح الاسلام ، وإنما اكتفينا بالاشارة إلى ظاهرة إن دلت على شىء فعلى بعد أولئك الأخيار الكرام عن الاتجار باسم الدين واعتزازهم بثروتهم المعنوية ، وهكذا لم يكونوا مجافين روح الاسلام المجيدة بتخليهم عن المادة ، وشتان بين حالهم وحال أغلبية المتصوفين المسلمين فى عصرنا الحاضر .

المعجزات المحمدية

فى أوائل القرن السابع الميلادى أعلن محمد بن عبد الله رسالته للبشرية من منبر العروبة، وقرنها بسلسلة من المعجزات المفحمة أو على الأصح بمطلع هذه المعجزات التى تزيدها الأيام تجلياً لن ينقطع.

فما هى هذه المعجزات؟ وما سر تجليها المزداد؟

إن ازدياد تجلى هذه المعجزات المحمدية على مر القرون دليل على ما يكمن فى الاسلام من طاقة عظيمة لا تنتهى، بل تزداد سطوعاً وايحاء وعظمة لأنه دين تطورى لا يعرف الجمود.

أما هذه المعجزات فمتعددة تنبثق من صلب الاسلام وهى :-

أولا : القرآن — لم يعرف عن رائد - سابقاً أو حاضراً - أنه تقدم للانسانية بوثيقة جمعت جمعاً شاملا لأقوى العناصر الثلاثة البالغة التـأثير فى الوعى واللاوعى معاً كما صنع النبى محمد صلوات الله عليه.

أما هذه العناصر الثلاثة فهى اللغة، والدين، والمثالية.

فاللغة كانت وما زالت منافسة للدين فى التأثير على الأذهان وربط القلوب، حتى وجدنا كثيرين من المسيحيين، وعلى الأخص الكاثوليك، محببين إلى المسلمين وإلى العرب جملة لعنايتهم الفائقة باللغة العربية - لغة العروبة بجميع مقوماتها وطوائفها، وقد أسدوا ما أسدوا من الخدمات الجلى لها فى فقه اللغة والبحوث الأدبية التاريخية خاصة، وهذه مجلة (المشرق) البيروتية شاهد عيان على مآثرهم المستمرة، وهنا فى وشنطن العاصمة بالذات ينظر المسلمون بل العرب جميعاً إلى الأب أربز Father Arbez أستاذ العربية بالجامعة الكاثوليكية نظرة المحبة والاحترام ويعدونه واحداً من صميمهم، كما يعز أمثال المستعربين الأفاضل هارولد جلدن Harold Glidden (فى مكتبة الكونجرس) ومايرون سمث Myron Smith المعنى خاصة بالثقافة الاسلامية، وإتنجهاوسر Ettinghauser من رجال متحف الفن (Fraer art Gillary). وإن ننس لا ننس جهود الجزويت فى (المنجد) والتحقيقات اللغوية، ولا مآثر المطارنة الأعلام غريغوريوس حجار وجورجيوس حكيم

وجرمانوس فرحات وأندادهم .

وقبل ثلاثة عشر قرناً على لسان محمد بن عبد الله تجلى عامل اللغة الفعال أروع التجلي فى القرآن المجيد ، فوضع الأساس في التفاف العرب جميعاً حوله على مر القرون ، وما من عربى حر صميم الآن إلا ويعد النبي محمداً أعظم أبطال العروبة على اختلاف طوائفها ، وقد جاءت العربية القرآنية بأصالتها وإبداعها تحفة فنية عديمة المثال ، فصارت فخراً أدبياً يعتز به كل عربى ولو لم يكن مسلماً ، حتى عرف عن نفر من العرب المثقفين غير المسلمين حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكان بين هؤلاء حديثاً المطران غريغوريوس حجار .

وإلى جانب هذا التراث الأدبي الذى بلغ الذروة فى مقامه جاء القرآن بدين عقلى روحى عظيم لا يمكن أن تتطرق اليه أو تلصق به الخزعبلات والأوهام والسفاسف إلا عرضاً ثم تزول وهذا هو العنصر الثانى للمعجزة القرآنية - عنصر الدين الجذاب .

أما العنصر الثالث فهو عنصر المثالية التى تستهوى العقل والخيال معاً استهواء لا يحد ولا ينتهى .

بهذه العناصر الثلاثة تكونت المعجزة القرآنية وتوجت

جميع المعجزات المحمدية التي تعد في الواقع متفرعة عليها. وخلد القرآن الشريف بعناصره الثلاثة الجبارة خلوداً مطلقاً لا يتزعزع فكان معجزة المعجزات التي جاء بها الرسول.

ثانياً: الثورة للكرامة الانسانية — ظهر محمد فرداً بثورة على الظلم والظالمين كيف كانوا وأينما كانوا، وبين أولئك سدنة الشرك والوثنية، لأنهم في حكم الممتهنين للعقل الانساني. ظهر بهذه الرسالة وهو رجل أمي لا ثروة له ولا طائل، وتشبث بأيمانه، فانتصرت عقيدته على الرغم من العقبات الهائلة التي أحاطت به والتي كانت كافية لاحباط همة أي انسان سواه. ولم يلجأ إلى الخديعة في تحقيق رسالته وبلوغ أهدافه كما صنع مثلا عبدالرحمن الداخل أو أبو جعفر المنصور، وانما اعتمد على الحق والاخلاص فحسب، كما نوه بذلك المستشرقون المنصفون. فكان انتصاره في تلك المعمعة الطاحنة معجزة بالغة.

وقد مرت القرون دون أن تخبو معانيها المتألقة، فألهمت السلوك الاسلامي على مدى القرون.. ألهمته كل من تشرب الثقافة الاسلامية من الشعوب غير الاسلامية.

وثورات الحرية والاخاء والمساواة والديمقراطية التي تتابعت

فى العالم عصرا بعد عصر ،ودعمت الشورى والعدالة ، يمكن تتبع أصولها إلى صميم التعاليم الإسلامية التى بلغت أوجها من الازدهار فى الأندلس وفى الجامعات العربية بأوربا . فغرس بذور هذه الثورة التى لا تنتهى مظاهرها وجدواها لرقى الإنسانية المتواصل معجزة أى معجزة ، وعندنا أنها وحدها كافية لوضع الرسول فى المنزلة العليا من القيادة بغض النظر عن عظمته الدينية

ثالثاً : المثالية العلمية — قدم محمد الرسول الأمى للعالم مثالية قوامها العلم والفلسفة العلمية ، وهو دائم التذكير بالعقل والمنطق . وهذه المثالية العلمية هى التى عصمت الإسلام من أن يكون يوماً ما دين تأخر وعنجهية .

وقد جرى هذا فى وقت لم يكن للعلم الواقعى شأن مذكور فى حياة البشرية ، بل كان الشأن للسحر والكهانة والتقاليد الخرافية وعبادة الأوثان .

واستناداً إلى هذا الأساس الراسخ نادى الإسلام بصلاحيته النافعة لكل زمان ومكان ، كما نادى بأن المستقبل له ، وبهذا تقدم النبي بمعجزة أخرى لم تدركها أفهام الناس قبله ووضع الأساس لديانة تقدمية صادقة تراعى الغرائز بقدر ما تهذبها ، وتحترم العلم

والعقل وتوجه الإنسان إلى تفسيرهما الكائنات وإلى هديهما فى تطبيق الدين .

رابعاً : الرسالة العالمية — لم يحصر محمد رسالته فى قومه بل ارتفعت عظمة شخصيته فوق حدود البيئة والمكان والزمان وهذه العظمة الذهنية الروحية هى إحدى معجزاته العظيمة التى أنزلته فوراً منزلة « السرمان » .

ومن أهم نواحى هذه الرسالة بر الإسلام بمخالفيه وأنصاره على السواء ، فهو لا يغلق باب الرحمة فى وجوه الأولين ، بل لا يغلقها فى وجوه الآثمين مهما أنذرهم وهددهم لأجل ردهم عن غوايتهم وخوفهم بأهوال الجحيم ليثوبوا إلى رشدهم .

خامساً : تقديس السلام - دعا محمد إلى تقديس السلام بدل تمجيد الحرب ، وحرم الحرب الهجومية — حرب العدوان — تحريماً باتاً ، مخالفاً بذلك تقاليد قومه ، وشرائع زمنه، فأثبتت تجاريب الإنسانية على مدى القرون حصافة تعاليمه التى شرع الناس يأتمون بها كما ترى فى هيئة الأمم المتحدة وفى الوكالات والمنظمات العديدة المتفرعة عليها أو المتمشية معها ،وهذه معجزة أخرى عظيمة ، فالسلام الذى اشتق الاسلام من لفظه ومعناه ،

أصبح الآن قبلة الانسانية ، تصلى له فى كل آن ، ولا ترى سواه مخلصاً لها من أدوائها ، فى حين أن الإسلام نادى به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً . وهذا مثال للمعجزة التى تزداد تألقاً وهداية للبشر على كر العصور .

هذه طائفة من المعجزات المحمدية وليست كلها، ولكنها كافية للتدليل على عظمة محمد وعظمة تعاليمه . وأما الخوارق التى تردد ولا يقبلها العقل ، فلا محل لها من الصحة والاعتبار ، وما هى إلا رموز زمنية قصصية فحسب ، وما كان الإسلام الصحيح لهواً وعبثاً .



الاسلام والصالح العام

الحديث عن الاسلام والصالح العام هو الحديث عن اهتمام الاسلام بخير البشرية عامة ، وهو ضمن ذلك الحديث عن الاسلام والعالم الحر .

لم تكن رسالة النبي الكريم مقصورة على نشر الدعوة إلى الحق بالحجة والاقناع فحسب ، ولم تكن مكتفية بالتحبيب إلى الاسلام وترهيب المشركين كيفما كانت مراكزهم من عواقب ضلالهم ، بل عنيت بما هو أعظم وأعم من ذلك — عنيت باعتبار المجموع الانسانى ، آجلا إن لم يكن عاجلا ، ضمن حظيرة الاسلام ، ولذلك أوصى الاسلام بتلبية استجارة المشركين حتى يقلعوا عن غيهم ، وإذ بشرهم بعذاب أليم لقاء فجورهم لم يوصد فى وجوههم باب التوبة ولا باب الرحمة الالهية .

وليس هذا فحسب ، بل عنى الاسلام بدفع الجور والعدوان عن البشرية ، واهتم بمساعدة الشعوب المختلفة على التحرر من

العبودية سواء أكانت قومية أم أجنبية ، وهذا هو السر فى حماسة المسلمين الأتقياء المخلصين لتحرير الشعوب المستضعفة المستذلة من الجبروت والاستغلال إلى جانب هدايتها الدينية .

وما كانت الحروب الاسلامية — أى التى أباحها الاسلام حقاً — حروب اعتداء ، وإنما كانت حروب دفاع أو حروب انقاذ للأمم العانية أو للمسلمين المهددين .

والاسلام لا يشغل نفسه بالفرد وحده ، وإن كانت حقوق الفرد عنده محل الرعاية ، بل الصالح العـــام ذو شأن خطير فى اعتباره ، والصالح العام لا يعنى فى نظر الاسلام صالح جماعة أو قوم فقط ، وإنما يعنى صالح البشرية جمعاء وهى التى شغل الاسلام بخيرها دواماً ، حتى أن تعبير «الأمة الاسلامية» معدود فى نظر المسلمين الحصفاء مرادفاً للبشرية ، إذ أن الاسلام يتشبث باعتناق البشرية إياه فى النهاية ، وأنها باعتناقه ، أو باعتناق مبادئه تحت اسم آخر أو أسماء أخرى ، إنما تناصر السلام الذى بشر به الاسلام ، وتحقق الوحدة الانسانية السامية .

ليس الأصل فى الدين الاسلامى الخوارق بل العقل والعلم لخلاص البشرية وسعادتها . هذا هو معنى الصالح العام فى نظر

الاسلام ، هو السعادة الشاملة التى يأخذ كل فرد بنصيبه منها ، وليست تلك التى تكون اسماً على غير مسمى ، وتتجاهل حقوق الفرد التى هى الأساس الأول للمجتمع القانع الهنيء .

إن الجمع بين رعاية حقوق الفرد وحقوق المجموع — وهو ما ينطوى تحت تعبير « الصالح العام » — من مزايا الاسلام التى تأثرت بها الديمقراطيات الحديثة وأخذت عنها . والاسلام يعتبر الديكتاتورية منافية للصالح العام — سواء أ كانت ديكتاتورية سياسية أم دينية أم غير ذلك .

وإذا كان الاسلام لا يرتضى قيام طبقة من الكهنوت الدينى فهو من باب أولى لا يرتضى قيام طبقة من الكهنوت السياسى أو الاجتماعى ، إذ أنه يعد ذلك منافياً للصالح العام جملة ، ومنافياً لحقوق الانسان التى تشمل حرية التفكير وحرية التصرف المشروع ، وملقياً بالانسان فى خضم من الترهات والخرافات والتعصبات المريضة التى تناهض وحدة الانسانية .

« الصالح العام » فى نظر الاسلام هو إذن تعبير أوسع جداً مما يحمله اللفظان ، فالاسلام يذهب إلى أبعد من اعتبار صالح معتنقيه هو الصالح العام . إنه لا يقنع فى وقتنا الحاضر مثلا

بأربعمائة مليون ممثلين فى مجموعهم ما ينعت « بالأمة الاسلامية » بل يحسب الأمة الاسلامية هى البشرية كافة ، لأن الاسلام يبشر بصلاح الانسان وبرقيه إلى غاية تكون فيها مبادئ الاسلام هى السائدة بين الناس تحت راية السلام .

الاسلام إذن عقيدة تفاؤلية تبشر بقدسية الروح الانسانية وبجمال الحياة ، وبالحفاوة بالدنيا والآخرة معاً ، وبأن الصالح العام لابد أن يشمل كل هذا لخير الناس جميعاً .

والاسلام الواعى المتسامح يقول : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » كما يقول « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله . فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »

وهو بهذا التصريح يشعرنا بأن وراء تسامحه الثقة المطلقة بأن البشر على اختلاف أديانهم بل والكافرين مجتذبون حتماً اليه فى نهاية الأمر ، ولو مرت فى سبيل ذلك قرون .

مدح أبو العبـــاس عبدالله أول الخلفاء العباسيين لسخائه وملاحته ورويت عنه الخطبة الآتية إثر مبايعته . قال : « الحمد لله

الذى اصطفى الاسلام لنفسه ، فكرمه وشرفه ، وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوامين به والذابين عنه . »

ثم ذكر قرابتهم من رسول الله بآيات من القرآن ، إلى أن قال : « فلما قبض الله نبيه قام بالأمر أصحابه ، إلى أن وثب بنو حرب ومروان ، فجاروا واستجاروا ، فأملى لهم حيناً حتى استوفوا ، فانتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، ليمن به على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما استفتح بنا ، وما توفيقنا — أهل البيت — إلا بالله . »

هذا الخطاب الكلاسيكى الذى استهلت به دولة عاشت خمسة قرون وربع القرن تقريباً ، ينافى الصالح العام ، ومن ثمة ينافى الاسلام الصحيح ، ولو أن صاحبه تمسح بالاسلام وأهل البيت، فالحكم فى الاسلام لا يعرف شيئاً ينعت بالقرابة النبوية أو أهل البيت ، وإنما يعرف الكفاية ، والأهلية الصالحة ، والتقوى فى رعاية الصالح العام ، واحترام حقوق الناس وأرواحهم ، وقد كان هذا الخليفة مولعاً بسفك الدماء حتى لقب « بالسفاح » ، وهذا منكر عظيم ، وأثم هائل لا يرتكبه مسلم ولا يشترك فيه

ولم يكن أخوه أبو جعفر المنصور بأفضل منه كثيراً ، فقد قتل خلقاً كثيرين ، ومن بينهم أبو مسلم الخراسانى الذى مهد ملك العباسيين ، فكان مضرب المثل فى الغدر ، وما هذا من شيم المسلمين ، ولا من وصايا الاسلام ، ولا مما يتمشى والصالح العام. وإذا كان أبو جعفر أول خليفة أمر بنقل المعارف الأجنبية إلى العربية خدمة للثقافة وتنويراً لأذهان العرب ، فما كان هذا بالذى يكفر عن سلوكه الآخر الشاذ ، لأن الصالح العام كل لا يتجزأ ، وسياسة الجبروت والقتل مما ينفر الناس من الإسلام والمسلمين ، وبالتالى مما يؤدى إلى خذلان الرسالة المحمدية التى ترمى إلى السلام العام ، والطمأنينة الشاملة ، والأخوة البشرية .

وما انتفاع الناس بترجمة اقليدس أو كليلة ودمنة أو بتدوين الفقه والحديث والتفسير إذا كانوا غير آمنين على أرواحهم وأعراضهم ، لا يملكون حرية القول والكتابة ، والاسهام التام الطليق فى خير مجتمعهم وخير الإنسانية ؟

إن الصالح العام فى نظر الإسلام لا حدود له ، وأما الضرر العام فأهونه غير هين فى نظر الإسلام ،ويبدأ بضرر الفرد مسلماً كان أم غير مسلم ، مواطناً كان أم أجنبياً ، لأن هدف الإسلام النهائى — كما ألمعنا — شمول الجميع تحت رايته ، والكل فى

اعتباره بمثابة أخوة .

ونحن إذا تأملنا فى محاضرات المستشرقين عن تاريخ الفقه الإسلامى (ونذكر على سبيل المثال محاضرات الدكتور يوسف شاخت الأستاذ بجامعة كونيكسبرج والأستاذ بالجامعة المصرية سابقاً) وجدنا أن أغلبيتها الساحقة مجرد (كتالوجات) لآراء وتفاسير أملاها اجتهاد لا تسانده إلا ثقافة لغوية وأدبيـــة ، ولذلك كانت أشبه بالجهل منها بالعلم .

وأعجب مافى هذه المحاضرات — التى انغمس فى مثيلات لها المسلمون النقليون انغماسهم فى تآليف طويلة عريضة كأنها مكتوبة فى كوكب آخر لأناس لا نعرفهم — أنها خالية تماماً من حقيقتين هما لب لباب الشريعة الإسلامية والفلسفة الاسلامية ، ولا معنى للفقه الإسلامى إذا تجرد عنهما ، وهما لا تحتملان تكرار التنبيه إليهما :

فأما الأولى فقيام الإسلام كمثالية وشريعة لخير البشر كافة ، أى للصالح العالمى فى كل وقت وفى كل قطر ، والقاسم المشترك الأعظم بينها جميعاً ، التفسير العلمى للقرآن وللحديث ، لأن العلم المحقق هو النور الساطع الثابت على كر الأجيال ، وما عداه أوهام وتخليط .

وأما الثانية فهى أن القرآن الشريف الذي لم يفرط الله فيه من شيء، فيه أساس الأسس، وجراثيم النواميس وصور منوعة من الأحكام المعللة التى تتنوع، أو تتبدل، أو تتوقف بتنوع عللها أو تبدلها أو توقفها، وعلى هذا الاعتبار نشأت (القوننامجات) العثمانية والتشريعـــات المدنية فى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية المتقدمة التى أدركت أن كل تحويل أو تجديد تشريعى توحى به الظروف إنما هو من صميم تعاليم الإسلام، وأن التطور الدائم فى هذا المجال لا يتفق وروح القرآن فقط، بل بما يحتم الإسلام استمراره، كما جرى فى أمور الأحوال الشخصية والجنائية وسواها، بل قل فى جميع مرافق الحياة، لأن الصالح العام يدعو إلى ذلك، والصالح العام هو المهيمن الأعظم فى تطبيق الإسلام، ومن أجل الصالح العام الكفيل بسعادة البشرية تجلى الإسلام ثورة على الظلم والظالمين، وعلى كل ما يمتهن العقل والشخصية الانسانية، وهكذا كان الصالح العام نبع الدستور الإسلامى ولم يتقيد هذا الصالح العام بأى قيد سوى قيد العلم المحقق، الذى هو أداة الدين، كما أنه الناموس الذى تسير بموجبه الكائنات جميعها، وهو هو الأمين الوفى على الصالح العام.

الارتداد عن الاسلام

القرآن — كما نعلم جميعاً — هو دستور الإسلام الأعلى بل هو دستوره الوحيد ، وهو كتاب مبادىء وأصول ، لا شروح وتفاصيل ، والأحاديث النبوية الصحيحة لا يمكن أن تخرج عن كونها شرحاً للقرآن ، فما ند منها عن ذلك لا يمكن قبوله ، وتحتم علينا أن نعتبره منتحلا ، ومثله ما يروى عن السيرة النبوية .

ولا عجب فى ذلك فان بدء تدوين الحديث على يد عروة ابن الزبير ، كان بعد وفاة الرسول بأكثر من نصف قرن ، وقد تجردت تلك الأحاديث عن أى سند ، كما أن الاهتمام الجدى بالتدوين لم يقع إلا فى القرن الثانى الهجرى ، وكثير من هذه الأحاديث مناف كل المنافاة لروح الإسلام الثائرة المصلحة ، والانسانية العظيمة ، والبالغة المرونة وفاقاً للصالح العام فى كل زمان ومكان .

يتفق فى هذا الحكم المستنيرون من أئمة الإسلام وفى طليعتهم

من معاصرينا الشيخ عبد العزيز جاويش، وكتاباه: « أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى » و « الإسلام دين الفطرة والحرية » أشهر من أن يعرفا، والمستقلون من غير المسلمين وفى مقدمتهم من معاصرينا المستعرب التركى الدكتور إدهم، الذى يقول فى مقدمة كتابه الموسوم « من مصادر التاريخ الإسلامى » ما نصه: « لقد اهتزت أوتار العقل البشرى عندما ظهر الرسول محمد فى فلوات جزيرة العرب، يدعو الملأ إلى رسالته العاليه «الإسلام» وقد كان الإسلام بتشريعه ومبادئه نتاجاً لجهد العقول من عصر المسيحية إلى القرن الخامس الميلادى، حيث تمخض العقل الدينى فى فيافى الجزيرة عن الدين الإسلامى.

ظهر الإسلام فى مكة، ولم يلبث طويلا حتى انتشر فى جزيرة العرب، ثم لم يلبث — لعوامل اجتماعية، وأخرى اقتصادية — أن غزا سوريا وما بين النهرين، ولم يأت أواخر القرن الأول الهجرى حتى كان الاسلام قد ملك ناصية المشرق، من الصين إلى الاطلنطيق. وكانت حركة مد الإسلام من الحركات التاريخية الفاصلة بين عهدين فى تاريخ المشرق فى فترة القرون الوسطى، إذ حفظ الإسلام — بمدنيته التى خلقها — تراثاً للانسانية

خرجت به من جهادها الطويل فى فترة تلبد فيها جو المعرفة وتحجرت خلالها أسباب النشوء عن الأخذ بالعقل الإنسانى إلى سلم الارتقاء.

فى ذلك الوقت الذى أغمض فيه العالم جفونه وذهب فى سبات عميق وأخذت غيوم التعصب الحالكة مع سحب الجهالة السوداء تتجمع فى سماء المعرفة، أخذت الحياة تدب فى موات الشرق — فى الشرق الأقصى لتتمخض عن حضارة الصين الزاهرة، وفى الشرق الأدنى لتتولد حضارة الاسلام الزاهرة.

أيقظ الإسلام العقول الجامدة من سباتها وولد فى تيار العقل الإنسانى مجرى جديداً، ولم يمض القليل حتى أخذ التاريخ يرى فى ربوع الشرق الأدنى مدنية خالدة بآثارها إلى اليوم.

ولو لم يكن للاسلام إلا ما أنشأ من حضارة فى القرون الوسطى، حفظت تراث الانسانية من الضياع، لكفاه فخراً إلى الأبد.

اقترنت نشأة المدنية الإسلامية بخلافات داخليــــة فتحت أبواب الانتحال أمام رجال ذلك الجيل، فانغمر التــــاريخ الاسلامى بعشرات الألوف من الروايات الكاذبة؛ بل والمئات

المؤلفة من الأحاديث المختلقة على الرسول ، وكان لهذا الانتحال أسباب عديدة ، فكثيراً ما كان الدين يدفع رجاله لانتحال الروايات التاريخية والأحاديث النبوية لإثبات بعض وجهات النظر الدينى .

يسوقنا إلى هذا ، النظر فى الخلافات الدينية التى استعرت نارها خلال القرنين الأول والثانى للهجرة بين أنصار على وأنصار معاوية ، وما عقب ذلك من نضال بين أهل السنة والشيعة والمعتزلة ، كما أن السياسة والخلافات التى قامت بين بنى أمية وبين بنى هاشم إلى صدر الدولة العباسية ، كان لها يد لا تنكر فى الانتحال .

ونحن نرى هذا الانتحال قد اندفع إليه الكثيرون من جلة الرجال عن طريق غير شعورى كما تدلنا على ذلك حالات عديدة كما أن الجانب الأكبر كان مقصوداً انتحاله لغايات دينية ومآرب سياسية .

وهكذا غابت حقائق التاريخ الاسلامى وسيرة الرسول فى طيات الأقاصيص التى ابتدعتها العقول خلال القرنين الأول والثانى للهجرة ، فظهر — من خلال ذلك — التاريخ الاسلامى وسيرة الرسول مختلطة مادتها بالأقاصيص اختلاط قليل من الحقائق

بكثير من الأوهام ».

هذا ما يقوله صاحب رسالة « لماذا أنا ملحد ؟ » فى موقف التحقيق والانصاف لصاحب الرسالة المحمدية . وقياساً على استنتاجه الصائب وعلى القرائن والتفاسير الحكيمة نقول : إن الردة فى الاسلام ليست تعنى أن يبدل به دين آخر ، وإنما تعنى – إلى جانب التخلى عنه – الغدر به ومناوأته مما يدخل فى باب الخيانة العظمى التى تعاقب عليها حتى الحكومات المعاصرة وأعظمها مدنية بالقتل ، وكم ارتكب أولئك المرتدون من جنايات فى محاربة الاسلام بعد أن وقفوا على نقاط الضعف عند المسلمين .

وقد صدق الامام الشيخ جاويش فى قوله إن لبدء ظهور الاسلام من الأحكام ما ليس لغيره ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتصرف فى الحوادث عند حدود مقتضيات الأحوال . ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات ، ولكننا ابتلينا بالجمود وضعفنا عن إدراك أسرار سيرته ودينه الفطرى ووقفنا عند حدود الألفاظ وأخذنا نتقيد ببعض الروايات ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الالهى ما يرشدنا إلى أيسر السبل وأقومها

لو كنا نعقل(١)

بناء على ما تقدم لا يعاقب الاسلام ولم يعاقب يوماً من تخلى عنه تبعاً لوحى وجدانه ، لأنه نادى من البداية بأنه لا إكراه فى الدين ، وأنه لا تقبل صحة العقيدة ممن لا يؤمن بها . وقد كانت وما زالت الأحكام الاسلامية عرضة للتبــديل المنطقى وفاقاً للمصلحة العامة التى تبدلها الظروف ؛ وهذا روح التشريع الراقى فى كل عصر .

ولنأخذ مثلا الدستور المصرى المعلن فى التاسع عشر من ابريل ١٩٢٣ . وقد اشترك فى وضعه جمهرة من أقطاب المسلمين بل كانت لهم الأغلبية الساحقة التى اعتبرت مواده متمشية كل التمشى مع مبادىء الاسلام تبعاً لمقتضيات العصر الحاضر . وإليك . طائفة من هذه المواد : —

المادة الثالثة — المصريون لدى القانون سواء ، وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة ، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين . الخ

(١) ٣٨ و ٣٩ — أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى — عبد العزيز جاويش ١٩٢٨ .

المادة الرابعة — الحرية الشخصية مكفولة .

المادة الثانية عشرة — حرية الاعتقاد مطلقة .

المادة الثالثة عشرة — تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية فى الديار المصرية ، على ألا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب .

المادة الرابعة عشرة — حرية الرأى مكفولة . ولكل إنسان الإعراب عن فكره بالقول أو الكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون .

هـذا هو حكم الاسلام فى القرن العشرين ، وقد يتطور بل لا بد أن يتطور إلى ما هو أبعد من ذلك فى مقبل العصور . فالمناقشات البيزنطية التى تجرى فى عدد من المجلات والكتب الجامدة حول الارتداد عن الاسلام حتى لتصل إلى المحاكم الشرعية مطالبة بالفصل بين الزوج وزوجته مما لا يتفق وروح الاسلام بتاتاً .

وقد ذهب الزمن الذى كان فيـه الاسلام ضعيفاً وزواج المسلمة بالكتابى أمراً غير مرغوب فيه نظراً لقلة عدد المسلمين وخشية سوء معاملة المسلمة ، ولكن الأحوال تبدلت الآن تبدلا

تاماً وأصبحت المرأة سيدة نفسها القادرة على حماية حقوقها حماية تامة ثم إن الزواج فى الاسلام مدنى الطابع، وللمرأة أن تشترط فى عقده ما تشاء من الشروط رعاية لصالح أسرتها وصالح نفسها، فالتدخل بينها وبين زوجها بعد ذلك باسم الشريعة أو باسم أى اعتبار لا تدعو إليه الآداب والحقوق الصريحة إنما هو افتئات على كرامتها.

وإنه لمحزن حقاً أن توجد أقطار اسلامية متخلفة — وإن تكن قلة — تأخذ بدعاوى الفقهاء الجاهلين وتجعل السيف والنطع جزاء من يترك الاسلام إلى دين آخر، وهذا منتهى العبث بحقوق الانسان المخالف لتعاليم الاسلام أتم المخالفة، والمصور له تصويراً وحشياً وهو دين البر والرحمة والحضارة!

إن الاسلام الصحيح دين الاقتناع، دين المنطق، دين الحرية، دين الاخوة الانسانية والكرامة البشرية، دين العالم — فى اعتبار الاسلام ذاته — عاجلا أم آجلا، فكل حركة أو خطوة تناهض ذلك هى عدوة للاسلام، لأنها تعمل على نقله من النور إلى الظلام ومن الذروة إلى الحضيض. ولا ريب أن مسألة الارتداد عن الاسلام بالمعنى المشوه الذى يلاك ويردد هى من تلك الخزعبلات التى ينبغى القضاء عليها مذهباً وسيرة ونتيجة.

الاسلام والحضارة

يزعم بعض المنتقصين أنه ما دام الاسلام فى أصله دين تقشف فلا يمكن أن يكون دين حضارة ؛ وهذا وهم بالغ يأباه المنطق كما يأباه التاريخ .

ويزعم أمثالهم أنه ما دام الحجر على الحق أو إرهاق الأحرار يجرى فى هذا البلد الاسلامى أو ذاك تحت دافع الهستريا السياسية أو ممالأة للجهلة من رجال الدين فمعنى ذلك عداء الاسلام للحرية وعداؤه للحضارة ، وهذا أيضاً منطق معكوس غريب .

إن التقشف الاسلامى ليس معناه العزوف عن طيبات الدنيا ، وانما معناه اجتناب التهالك على الرفاهية وما يصحبه من تدهور خلق ، وبالفعل حينما تهالك المسلمون على الرفاهية تدهوروا أى تدهور وضاع ملكهم وذهبت بذهابهم حضارة رائعة .

أما حرية الفكر والغيرة على الحق فمن صميم تعاليم الاسلام منذ نشأته ، فلما أغفلت هذه أو تلك تدهور الملك الاسلامى ؛ ولذلك حق لنا أن نقول : —

إن الخيانة للأوطان أخطرها حجر على الحق أو إرهاق أحرار.

ما هو إذن موقف الاسلام من الحضارة ؟

إن موقف الاسلام من الحضارة هو موقف الأب البار نحو ابنته. أجل فالاسلام يعتبر الحضارة سليلته لأن دستور التقدم الانسانى مدون بالقرآن العظيم، وكل عامل يؤدى إلى رقى البشرية هو منه وإليه، وكل ما ناقض هذا التقدم غريب عنه. وكثيراً ما نقرأ عن التوفيق بين الحضارة والاسلام، وهذا التعبير — فى الواقع — تعبير خاطىء، إذ لا خلاف مطلقاً بين الاسلام والحضارة، فالحضارة نتيجة من نتائج النظام الاسلامى والفلسفة الاسلامية العملية. والحضارة الاسلامية — أى المترعرعة فى كنف الاسلام — حضارة شاملة عالمية، لأن روح الاسلام عالمية، فهى لا تعرف التعصب إطلاقاً، اللهم إلا للخير العام، وفى سبيل الخير العام تقتبس من مدنيات شتى وتتبناها وتشجعها وتصهر حسناتها جميعاً فى بوتقة التسامى الاسلامى.

إن الاسلام، الدين العالمى التقدمى، لم يتخل ولن يتخلى عن أى فكر صالح أو عمل نافع كيفما كان وأينما كان مصدره وعصره وأصحابه، إذ يعد كل ذلك ثمرة تعاليمه ونتائج تبشيره، وهكذا فى

عصرنا الحاضر خاصة ، إذا تحــدثنا عن أية نهضة أو حضارة مفلحة محسنة ، تمثلنا فوراً الاسلام الكريم بتعاليمه النورانية التى شعت شرقاً وغرباً وأخــذت بيد الانسانية فى مدارج الحياة الشريفة .

فاذا زرنا المختبرات والمصانع والمتاجر والحقول وتأملنا المخترعات ومظاهر المدنية الرفيعة، فنحن فى كنف الاسلام العملى .

وبعبارة وجيزة إن الاسلام تمتد جذوره وفروعه إلى جميع نواحى الحياة الجديرة بأن تعز ، والكفيلة بسعادة الإنسانية . والمدرسة الأمريكية الاسلامية ـ أى التى تمثل أرقى ما وصل إليه التفكير الاسلامى فى العالم الجديد ، إن لم نقل أرقى ما وصل إليه التفكير الاسلامى إطلاقاً ـ لا تعرف شيئاً اسمه التوفيق بين العلم والدين ، إذ أنها تعتبر العلم أداة للدين أو مظهراً له ، لأن العلم يفصح عن عظمة الوجود ، وعن أزلية الله ، ولأن الدين سلوك أدبى نقى ، والسلوك الذى يعارض العلم أو يناقضه ، لا يمكن أن يعتبر سلوكاً أدبياً ، مذ أن الصالح العام يتمشى مع العلم وتطبيقه ، وما يعارض الصالح العام هادم للخلق القويم ، هادم للسلوك الأدبى ، هادم للدين . والمدرسة الأمريكية الاسلامية التى

شرحنا تعاليمها فى معظم أحاديثنا قد خطت فى تفسير الاسلام خطوات واسعة جاوزت — كما هو طبيعى — تفاسير جمال الدين ومحمد عبده وطنطاوى جوهرى وعبدالعزيز جاويش وأضرابهم من الأئمة المستنيرين . وهى لا تعتمد إلا على القرآن الشريف وعلى القلة الضئيلة المحققة من الأحاديث النبوية الكريمة ثم على الأصولية العلمية التى تساندها المعارف الجامعية الصحيحة سواء أقام بتحقيقها وتلقينها مسلمون أم غير مسلمين .

هذا هو الاسلام كما يفهم ويفسر ويبشر به فى العالم الجديد بين المعلمين ، وكما حاولنا تبيانه بأحاديثنا العربية والانجليزية على السواء ، وعلى الأخص بالنسبة لتفاعله مع الحضارة الأمريكية ومع الديمقراطية الأمريكية ، فاسترعت تلك الأحاديث — وما زالت — أسماع الآلاف فى العالم الاسلامى بأسره ، حتى طولبنا تكراراً بجمعها وطبعها لتنشر فى جميع الأقطار الاسلامية علاوة على ترجمتها ونشرها بلغات شتى ، وعلى الأخص باللغات الاسيوية التى يعرفها ملايين المسلمين ألسنة قومية لهم . وما نذكر هذا إلا فى مقام التدليل على التطور الصالح لأذهان المستنيرين خاصة فى العالم الاسلامى ، وعلى أن الخدمة التى نقدمها خالصة لوجه الله

تلاقى تقديراً وفيراً لها وإقبالا عظيماً عليها، وعلى أن الحفاوة بالتفكير الاسلامى فى أمريكا لا تقل عن الحفاوة بالأدب العربى فيها .

وبينما لا يزال كثيرون ممن يعيشون فى العصور المظلمة يجنحون فى الأقطار المتخلفة إلى تعسير الاسلام بجهالات الكتب الضارة الأثرية ، يجتهد معلمو الاسلام فى أمريكا من طراز الدكتور أبى على خير الله فى بيان عظمته على ضوء العلم كما تتضمنه الكتب الجامعية المختلفة ودوائر المعارف والموسوعات المنوعة الرفيعة القيمة، وهكذا يعدون الاسلام فهماً هو الحضارة الصحيحة

فأئمة الاسلام فى نظر المدرسة الأمريكية الاسلامية هم الاخصائيون الثقاة فى المعارف الانسانية المنوعة فى عصرنا هذا ، وهم الذين يفقهون الاسلام أو يستعين بهم من يفقهونه على تفسيره معتمدين أساسياً على القرآن الشريف وذاكرين دائماً أن الحضارة كمظهر للرقى الانسانى هى معرض للاسلام الحى .

أما إذا نظرنا عبر المحيط فاننا نجد العجب فى الأقطار الاسلامية المتخلفة وأشباه المتخلفة ، فالآراء والكتب القديمة التى

يقال بأنها مبنية على الاجتهاد - وهو اجتهاد القرون الوسطى - أو على الاتباع - وهو اتباع أعمى - هى الفيصل الذى لا يرد ، حتى أصبحت الفتاوى الغاشمة تنشر وتنثر يمنة ويسرة دون حساب ، وبات الاسلام يحمل ظلماً أوزارها ، ويعد من أجلها ديناً همجياً وهو برىء منها كل البراءة .

فهذا قاتل ولديه لايجوز القصاص منه ، لأن الأب سبب إحياء الابن ووجوده ، فلا يجوز أن يكون الابن سبباً فى إفناء أبيه ، كأنما حكم القرآن الشريف لا قيمة له، بله فلسفة الاجتماع والتشريع والأخلاق التى تبين خطر ذلك الرأى السخيف ، وكأنما من يفتون بمثل هذه السخافة لا يعرفون شيئاً عن البيولوجيا وحقوق الكائن الحى مستقلا عن أبويه أو غير مستقل .

وهذه سنن ابن ماجة والبخارى بل وجميع كتب الحديث والسنة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبل صحتها العقل ، ولا يرضى نسبتها الى الرسول الكريم، صاحب أعظم شريعة عقلية انسانية ، فأن أغلبها يدعو إلى السخرية بالاسلام والمسلمين وبالنبى الأعظم والعياذ بالله .

لنأخذ مثلا (سنن ابن ماجة)، ولنستمع إلى هذا العجب

المنسوب إلى الرسول صلوات الله عليه : —

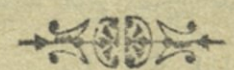
١ — الميت يعذب بما نيح عليه — (ص ٥٠٨)

٢ — إن الشمس تطلع بين قرنى الشيطان فاذا ارتفعت فارقها ، فاذا كانت فى وسط السماء قارنها ، فاذا دلكت فارقها ، فاذا دنت للغروب قارنها ، فاذا غربت فارقها ، فلا تصلوا هذه الساعات الثلاث - (ص ٣٩٧)

٣ - لما توفى القاسم ابن رسول الله (ص) قالت خديجة « يا رسول الله ! درت لبينة القاسم ، فلو كان الله أبقاه حتى يستكمل رضاعه ! » فقال رسول الله (ص) : « إن إتمام رضاعه فى الجنة » قالت : « لو أعلم ذلك يا رسول الله لهون على أمره ! » فقال رسول الله (ص) : « إن شئت دعوت الله تعالى فاسمعك صوته ! » قالت : « يا رسول الله ! بل أصدق الله ورسوله ! » — (ص ٤٨٤) .

وما هى إلا أمثلة قليلة من كثير سخيف ينسب إلى صاحب أعظم شريعة عقلية قضت على الخرافات والأباطيل فى عصرها ووضعت الأسس لتقدم البشرية المتواصل .

وإلى جانب هذا العبث نقرأ من الكتاب ذاته كيف أباح الرسول (ص) التوضؤ بالنبيذ (ص ١٣٥)، وهو أمر طبيعي لأن الكحول منظف مطهر ولولا غلاؤه لكان أصلح من الماء للتوضؤ به، وقياساً على ذلك كان الصابون والماء مجتمعين خيراً من الماء وحده للوضوء. ولكن من الناس كثيرين لا يفقهون سر الأحكام الاسلامية فى العبادات والمعاملات وغيرها، ولا يفهمون أن دينهم دين تقدمى بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مغزى ودلالة، والنبي الكريم الذى تؤثر عنه أقوال ذهبية جمة فى فضل العلم والعلماء والحث على طلب العلم لا يمكن إلا أن يكون رسول الثقافة والحضارة وعدو الترهات. قال صلى الله عليه وسلم: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء» (ص ٨١) وقال: «العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس» (ص ٨٣) وهكذا كان الاسلام منذ نشأته دين العلم والحضارة.



الاسلام والغرب

موضوع هذا الحديث حضارة وأمة، وإن كان محوره خطاباً ألقاه السيد ظفر الله خان فى « المركز الاسلامى » بوشنطن عاشر نوفمبر ١٩٥٤، ومن الخطباء من يمثل حقاً حضارة وأمة، كما أن من المعاهد - ولو لم يتم بناؤه - ما يشعر بذلك، وهذا شأن « المركز الاسلامى » بوشنطن. فشخصيات السيد ظفر الله خان والسيد أمجد على سفير الباكستان بوشنطن ورئيس تلك الحفلة التى ألقى فيها الخطاب، والدكتور محمود حب الله مدير المركز الاسلامى، أفعمتنى شعوراً بعظمة الاسلام وباخلاص أعلامه النابهين الرائدين.

ولا يفوتنى فى هذه المناسبة التنويه بألمعية الدكتور حب الله الذى يعمل ليل نهار ليشعر الأمريكيين بالمعانى الانسانية الرفيعة التى يرفرف عليها الاسلام الصحيح الذى جاء به محمد بن عبد الله وشرحه وطبقه خاصة عمر بن الخطاب وأبو ذر الغفارى، ولاقوا

فى سبيله ما لاقوه من تقدير وعنت على السواء .

كان رئيس الحفلة السيد أمجد على ، فقدم الخطيب منوهاً بمواهبه المتعددة كمحام ضليع ، وخطيب مصقع ، وقاض حصيف وسياسى محنك ، ودبلوماسى بارع ، وأديب إسلامى مستنير ، وهو الآن يعود إلى منصة القضاء ، تاركاً وزارة الخارجية الباكستانية ، بانتخابه قاضياً بمحكمة العدل الدولية . ورأيت فى المعرف والمعرف الباكستان الاسلامية المستنيرة الوثابة ، ورمز الحضارة الاسلامية التى امتد رواقها شرقاً وغرباً ، مقتبسة من مدنيات شتى ، ومطعمة لتلك المدنيات بحيويتها ورجاحتها ونبلها الذى لا يحد ، تلك الحضارة التى عبث بها وبفلسفتها كثيرون من المنتسبين إليها ، وكثيرون من خصومها ، حتى لقيت أخيراً من الزعماء السياسيين مثل جمال عبد الناصر ، ومن الزعماء الدينيين فى العالم الجديد مثل محمود حب الله وأبى على خـــير الله ــ من يعمل كدوداً لوجه الله فى طرح الخزعبلات الملفقة عنها وإبرازها فى صورتها الحقة الجديرة باحترام العالم ومحبته ، كيفما تعددت عقائد شعوبه وحضاراته وثقافاته المحلية .

وفى هذا السبيل يبذل « المركز الاسلامى » جهوداً تكاد

تكون منقطعة النظير إيقاظاً وتنويراً على الرغم من قلة الوسائل نسبياً .

ونحن إذ ندلى بآراء المحاضر الجليل — الذى ترجع معرفتنا بمواهبه وكفايته الفذة إلى أيام عملنا «بالأمم المتحدة» — يطيب لنا التعليق عليها من باب التنوير وإتماماً للفائدة .

وقد استهل محاضرته بقوله إن موضوع «الاسلام والغرب» لذو سعة جداً ، حتى بعد تحديده وقصره على أصول الاسلام التى يجب أن يعرفها الغرب ، ليتمكن من الحكم الصحيح على الاسلام وأهله ؛ فكل ما فى وسعه الادلاء به فى هذه المناسبة إنما هو رؤوس مسائل فحسب ، وردود على ما يطرح من أسئلة ، لأن الوقت لن يسمح بأكثر من ذلك . ثم قال إنه لن يتناول الناحية السياسية من الموضوع ، بل سيكتفى بالناحية الثقافية الانسانية .

وعنده أن من الواجب على الغرب أن يعرف ما هو الاسلام الصحيح ، كما أن من الواجب على المسلمين أن يوسعوا معرفتهم بالاسلام وأن يفهموه فهماً أفضل .

إن ازدياد سيطرة الانسان على قوى الطبيعة فى تقدم مطرد بخطوات واسعة ، ويصحبه ازدياد الخوف والقلق . فماذا لدى

الاسلام من حل لهذه المعضلة ؟ بل ماذا لديه من حلول للمشاكل المختلفة المتصلة بالحياة الانسانية فى جميع العصور ؟ ثم ما هو الاسلام ؟ وماذا يعنى؟ وإلام يرمز ؟ إن الجهل بحقيقة الاسلام شائع فى الغرب ، ولكن تبديد هذا الجهل بدأ فى الغرب منذ عهد قريب ، ومع أن أمريكا آخرة الأقطار التى عنيت بهذا الأمر إلا أن اهتمامها الإيجابى بات أعظم من اهتمام سواها .

إن الاسلام لا يدعى أنه دين جـــديد ، فان القرآن يعد إبراهيم والرسل السابقين مسلمين وينعتهم بهذا النعت ، والإيمان بجميع الرسل من أسس الاسلام .

وثمة صفتان لله سبحانه وتعالى يتشبث بهما الاسلام . أولاهما : رعايته المادية والروحية للعالم ، وثانيتهما : رحمته .

ثم إن الاسلام يعنى فى مدلوله الرئيسى أمرين :

إقرار الســـلام عن طريق الخضوع لارادة الله أو سننه كما نعرفها فى قوانين الطبيعة .

وأن الله خلق العوالم لغاية تبعاً لقوانين كيفها هى تلك القوانين الطبيعية التى يعد قبولها ايماناً ، وعلى المسلم إذ يؤمن بهذه القوانين أن يكيف سلوكه تبعاً لها .

وأوضح السيد ظفر الله خان أن الالهام الروحى — فى عرف الاسلام — يأتى من الله، وأن الله يكشف عن جلاله وليس الانسان هو الذى يبحث عنه، وأن الايمان ينبغى أن يشمل سلسلة القوانين الأدبية جميعها منذ القدم، وأن القرآن هو مجموعة الإلهامات الشفوية التى تلقاها النبى الكريم.

وتساءل السيد ظفر الله ما الذى يمثله القرآن ؟

ثم أجاب : إذا صح أن القرآن إلهام أو تنزيل منذ ثلاثة عشر قرناً، فتم إذن أن ما فيه من وحى يبقى إلى الآن. إن القرآن عالم بذاته، وهدايته مستمرة متطورة وفاقاً لتطور أوضاع الحياة الانسانية. والوحى الإلهى فى القرآن يشير إلى تنزيل الذكر وحفظه. وهذا يعنى : أولا : حفظ النصوص القرآنية وبقاءها، وثانياً : حيوية اللغة ونقاءها : وثالثاً : استمرار الهداية القرآنية فى كل زمان ومكان. وقد أثبت الواقع كل ذلك، فما تزال نصوص القرآن هى هى، وما تزال اللغة العربية فى منزلتها الشريفة، بل إن عدد متكلميها أضعاف ما كان قبلا، وهى معدودة ذات عبقرية تقدمية كفيلة بالنمو المطرد. وكل هذا يؤيد منزلة القرآن ولغته ومنزلة النبوءة الاسلامية عنه وعن رسالته.

وتساءل المحاضر : أيصرح القرآن بشيء عن سيطرة الانسان على الطبيعة؟ ويأتي بشواهد عدة من الآيات القرآنية كرد إيجابي كما يأتي بشواهد تحث الانسان على استعمال عقله فى فهم الكون وتدبر الأمور ، وكل هذا يثبت أن الله خلق العالم بأسره ، بل كل شيء ليكون فى خدمة الانسان . وقد حثه دائماً على البحث العلمى والتأمل ، وذكره بأن الكون لم يخلق عبثاً .

واهتم المحاضر بتوكيد : ١ — أن الاسلام رسالة عالمية يتضمنها القرآن . ٢ — أن فكرة الله واحدة فى جميع الشرائع السماوية ، ولو أن الاسلام شغل خاصة بعالمية الدين ، وبرحمة رب العالمين ، وبتكرار البيان عن ذلك ، كما نرى فى : (بسم الله الرحمن الرحيم — وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين — قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً) .

ونصح المسلمين بالمواظبة على دراسة القرآن ، كما نصح غير المسلمين بالتأمل فيه أحياناً ، نظراً إلى ما جمع من الأدب والحكمة ، فهو ذخيرة من الهداية والروحانية ، وهو فلسفة عملية توازن بين الواقع وبين العلم وتحمى الانسانية من الوقوع فى الهاوية .

وقال إن الاسلام يترك سبيل الاختيار أمام الانسان وحيثما

وجد الاختيار توجد المسئولية ، وإن الله قريب إلى المؤمنين ولا حاجة بهم إلى وساطة لديه — « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعـــوة الداعى إذا دعانى ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » . والله فى غنى دائماً ، أما الانسانية فهى المحتاجة والانسان هو الخاسر إذا لم يسلك السبيل القويم إذ تلك سنة الله « إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر »

أما عن ترجمات القرآن من أقلام الغربيين فقد أوصى السيد ظفر الله خان بالاطلاع أولا على المختارات التى نشرتها شركة (ماكميلان) من قلم الأستاذ (أربرى) ، ثم على الترجمة التى قام بها (مارماديوك بكثول) وظهرت طبعتها الأمريكية حديثاً بثمن زهيد ، وبعد ذلك يمكن الاطلاع على الترجمات ذات الشروح الضافية من أقلام علماء المسلمين الأصيلين وعلى رأسهم محمد على ويوسف على .

ومن باب التعليق الأدبى والدينى معاً نود أن نقول عن اختلاف التعابير والصيغ فى القرآن الشريف إن مرجعها هو نوع

الالهام وكيف تلقاه الرسول فعبر عنه بتلك اللغة القدسية . إن إخلاص الرسول أمر لا ريب فيه ، وهذا يشمل احساسه بتلقى الوحى عن طريق الملاك ، وأما لماذا يكون التعبير أحياناً بصيغة المتكلم أو بصيغة المخاطب أو بصيغة الغائب فمرده إلى الظروف وماهية التبليغ والحالة النفسية أو العصبية عند الشعور بتلقى الوحى ، وهو على أى حال بيان إلهى لا عوج فيه ، بل فيه مادة لا تحد لتأمل السيكلوجيين وأهل الأدب والعلم عامة .

وثمة مسألة أخرى مهمة لا نرى بأساً من تكرار التنبيه اليها لتنوير الغربيين خاصة . فلو وجدت حكومة عالمية لجاز حينئذ أن يكون للمرء جنسيتان : جنسيته العالمية وجنسيته المحلية . وكذلك الحال بالنسبة للاسلام الذى يعترف بجميع الأديان السماوية السابقة - فان عالميته تسوغ للمرء أن تكون له عقيدتان لا تنافر بينهما : ديانته الخاصة وشريعة الاسلام .

إن الغرب محتاج إلى الشرق احتياج الشرق إلى الغرب ، فالعالم فى تقدمه وحدة لا تتجزأ ، والاسلام فى أصله كالمسيحية تراث شرقى عظيم يمتد برواقه إلى جميع الجهات فليس بإمكان الغرب أن يتجاهله وهو الذى يعتبر الغرب - بكل ما يرمز إليه -

أحد أبنائه وتراثه من تراثه وصوالحه من صوالحه التى تشمل الانسانية جمعاء .

ومسألة أخرى جديرة بالنظر اللغوى هى التعبير بصيغة المفرد المذكر عن القوى الإلهية أو الألوهة ، وهذه مسألة تقليدية صرفة من ناحية التذكير ، أما من ناحية المفرد فهى رمز إلى الوحدانية أو الشمول . وهذا الشمول تنطوى تحته عوامل شتى وصفات شتى . فحينما نتحدث عن الخالق سبحانه وتعالى نعنى جميع العوامل المتفرعة عن الوحدانية العظمى التى نحسها بالوعى واللاوعى على السواء ، أو بصميم وجداننا ، دون أن نفهمها تماماً ، لأنها فوق منتهى ادراكنا .

وغاية إحساسنا بالله هى اندماجنا الروحى فى عوالمه كما يندمج الشاعر أو المغنى أو الفنان فى موضوع قصيده أو نشيده أو فنه فيصبح الشعر والشاعر ، واللحن والمغنى ، والفن والفنان شيئاً واحداً .

أما عن عبقرية اللغة العربية التى نزل بها القرآن الشريف فقد أجمع العارفون الفيلولوجيون على أنها لم تبز ، وأنها كانت جديرة إذن بهذا التنزيل ، وقد أثبتت القرون المتوالية رفعة منزلتها وصلاحيتها التامة لأداء الرسالة الانسانية التى عهد بها اليها .

وإن الناقد المستقل ليقف مشدوهاً أمام العظمة الفكرية التى تجلى بها الاسلام على لسان نبي أمى ، إذ لم يسبقه دين من الأديان دعا إلى تقديس العقـــل والاستنارة به كما دعا الاسلام ، وفى ظروف أقل ما يقال فيها إنها كانت متشبعة بالجهل والفوضى والقسوة ، وبقى الاسلام نصيراً للعقل وآثاره ، ولن يتخلى عنه وعنها إلا اذا تخلى عن ذاتيته ، وهكذا عد نفسه غير غريب عن الحضارة الغربية ، بل عدها ثمرة تعاليمه وجهوده المباشرة وغير المباشرة مدى العصور ، وهكذا وجب على الغرب أن يقف ويتأمل هذا المعلم الذى يطالبه بحقوق الأبوة من مودة وتعاون وفهم صحيح !



روح الاسلام

كان النبي محمد صلوات الله عليه خاتمة الرسل ، وجاء القرآن الشريف خاتمة الكتب السماوية ، وصرح الرسول الكريم بأن العلماء ورثة الأنبياء . وعلى هذه الاعتبارات مجتمعة وضع مبدأ التطور فى الإسلام وفاقاً لكل زمان ومكان . فإذا نزعنا عن الإسلام هذا المبدأ الذى فهمه وطبقه الخليفة عمر بن الخطاب بصفة خاصة ، وجاراه فى ذلك بعض التابعين والحاكمين من أعلام الإسلام ، نزعنا عنه مميزات كبرى ورددناه إلى مستوى الأديان البدائية من ناحية المعاملات على الأقل .

هذه الحقيقة العظمى التى لا يفهمها الجامدون هى من لب اللباب . وعدم إدراكها معناه عدم إدراك روح الاسلام . وقد رأينا تاريخ الشريعة يدلنا فى غير غموض على أن جمهرة التقدميين فى الماضى كانوا أنفسهم يخشون جمود العامة ، فطبقوا القياس تطبيقاً محدوداً جداً لم ينصفوا به الاسلام ولا أنفسهم ولا أهل

زمانهم الإنصاف الواجب .

نحن الآن قد تجاوزنا منتصف القرن العشرين ، وقد تلقينا عن شيوخنا المسلمين أن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن الصالح العام هو مصدر الإرشاد للتشريع وللسلوك ، فهل يجوز أن نبيح للرجل فى هذا العصر ضرب المرأة ؟ ! وهل إذا حرمنا ذلك عليه نكون قد خالفنا حكم الله تعالى فى قوله العزيز : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » ؟

بداهة لا ! وإلى أن يفهم الغافلون المتحجرون أن من أعظم مزايا القرآن الشريف إعطاء المثل فى الحكم أو المعاملة ، وأن كل هذا عرضة للتعديل والتبديل فى حدود الاسلام الأدبية تبعاً للمصلحة العامة — إلى أن يفهموا هذا جيداً فإنهم بعيدون كل البعد عن روح الاسلام التى تنادى دائماً بالتطور والتقدم ، والمدهش أن هؤلاء السادة لا يفهمون من تلك الآية الكريمة إلا تسويغ ضرب النساء فى زمن قريب من وأد البنات وقسوة معاملة النساء ، ولا يفهمون منها ولا من غيرها من الآيات الهادية التبغيض فى الطلاق والدعوة إلى الرفق بهن وتحاشى غبنهن . قال

تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . وقال جل شأنه : « .. وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟ » .

هــــذا ما نادى به الإسلام وهو بحيرة الوحشية والقسوة الإجرامية نحو المرأة ليدفع عنها الحيف بقدر المستطاع فى ذلك الزمن .

أفتنقلب الآية إذن وتصبح محاولة الإسلام حمايتها من الغبن والأذى تكأة لاهانتها واستعبادها ؟ تعالى الله عما يزعمون !

قال صاحب الأغانى(١) « وفد قيس بن عاصم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله بعض الأنصار عما يتحدث به عنه من الموءودات التى وأدهن من بناته فأخبر أنه ما ولدت له بنت قط إلا وأدها ، ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثه فقال له : كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة فى البنات فما ولدت لى بنت قط إلا وأدتها ، وما رحمت منهن موءودة قط إلا

---

(١) الطبعة الاولى (بولاق) ، ج١٢ ، ص ١٤٩ .

بنية لى ولدتها أمها وأنا فى سفر ، فدفعتها أمها إلى أخوالها ، فكانت فيهم ، وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتنى المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً . ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت ، فزارت أمها ذات يوم ، فدخلت فرأيتها قد ضفرت شعرها وجعلت فى قرونها شيئاً من خلوق (١) ونظمت عليها ودعاً وألبستها قلادة جزع(٢) وجعلت فى عنقها مخنقة بلح(٣) فقلت : من هذه الصبية ، فقد أعجبنى جمالها وكيسها ؟ فبكت ، ثم قالت : هذه ابنتك ! كنت خبرتك أنى ولدت ولداً ميتاً ، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ ! فأمسكت عنها حتى اشتغلت عنها . ثم أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة فجعلتها فيها وهى تقول : يا أبت ! ماذا تصنع بى ؟ ! وجعلت أقذف عليها التراب وهى تقول : أمغطى أنت بالتراب ؟ أتاركى أنت وحدى ومنصرف عنى ؟ ! وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى واريتها وانقطع صوتها ! فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها فدمعت عينا النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : إن هذه لقسوة ، وإن من

---

(١) الخلوق (بفتح الخاء) ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران
(٢) خرز فيه سواد وبياض . (٣) المخنقة : القلادة

لا يرحم لا يرحم ! »

هذه القسوة الآثيمة العاتية ارتكبها من وصف بأنه « سيد أهل الوبر » ، فما بالك بعامة العرب ؟ وما جاء الاسلام ليستبقى شيئاً منها بل ليقضى عليها فوراً أو تدريجياً حسب الظروف كما صنع بمنع تعدد الزوجات وتثبيط الطلاق ، فإذا بكل هذا يفسر عكسياً تبعاً لأهواء الفقهاء ، وإذا بالأوضاع تقلب ، وإذا بروح الاسلام الحقة تنسى أو تشوه !

وفى القرآن الشريف تعاليم لإنصاف المرأة وكرامتها تعتبر آية فى السماحة بل ثورة فكرية عظيمة فى وقتها ، فالقياس عليها يجب أن يكون نسبياً اعتباراً لزماننا ، لاتقيداً بحرفيتها التى كانت ملائمة لقرون خلت فحسب ، وذكرت على سبيل المثال ، وكانت حكمتها متعلقة بمناسباتها لا مستقلة عنها .

على ضوء الصالح العام وعلى ضوء الظروف الحاضرة اختارت دولة (الباكستان) المسلمة العريقة البيجوم ليافت على خان سفيرة لها ، واختار برلمان (جزائر المولديف) الاسلامية سيدة لتكون رئيسة ، ولو دعا الصالح العام لما حيل بين المرأة ذات الكفاءة الممتازة ورئاسة الدولة ، ويومها آت لا ريب فيه ،

لأن الإنسانية بلغت عهد تكافؤ الفرص ، عهد الحرية والمساواة والأخوة الانسانية ، فكيف بالاسلام وقد بشر بكل ذلك منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ؟

إن روح الاسلام التى تقر مبدأ الصالح العام بل تقدسه تسمح فى هذا العصر بأن تكون المرأة قوامة على الرجل بقدر ما تسمح بأن يكون الرجل قواماً على المرأة ، إذ أن مرد ذلك إلى الاعتبار الاقتصادى لا أكثر ولا أقل ، بخلاف ما كان عليه الحال فى فجر الاسلام . وها نحن فى الأقطار الاسلامية الراقية نجد الزوج والزوجة يتضافران على الكسب للعائلة ويقتسمان النفقات ، كما قد يمرض طويلا سيد الأسرة فتصبح سيدتها — بكدها وكسبها — هى القوامة عليها وربما كان ذلك طول الباقى من حياته .

لقد آن الأوان لأن يفهم كل من يتغنى بإعزاز الاسلام ، سواء أكان من أهله أم من أصدقائه ، بأن الاسلام لا شىء فى المبنى والمعنى إذا ما تجرد عن روحه المستمدة من التجربة والصالح العام ، والقابلة دائماً للتطور الذى لا ينتهى ، وهذه لا غيرها فلسفته الحقة الخالدة .

وأما التغنى بأبى داود والترمذى والنسائى ومسلم ، وترديد الأحاديث الملفقة التى لا تنسجم وتعاليم القرآن ،وأما سوء تفسير آيات الكتاب العزيز ، وأما الجهل بروح القرآن التى تشع من وراء هذه الآيات ، وأما التنازل عن صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان فبمثابة الخيانة لرسالة الاسلام الخالدة .

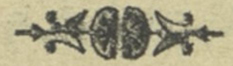
إن جميع الكتابيين قديماً وحديثاً هم فى عرف الاسلام بمثابة بجنديه ، ورسالته غير محصورة فى قطر أو فى جيل ، فكل قول أو عمـــل يحصر الاسلام فى بيئة معينة بدل إفساح الآفاق والأزمان له هو طعنة للاسلام من الخلف .

وهل بنا من حاجة لأن نقول لأى مسلم مستنير واع إن الحضارة العلمية التى تتسم بها مدنية القرن العشرين هى وليدة تعاليم الاسلام ، هى منه وإليه ،ولا يمكنه أن ينكر أبوتها ولا أن يسمح لأحد كائناً من كان ، بانكارها ؟ وهل بنا من حاجة لأن نؤكد أن أية عيوب خلقية أو أدبية تنسب إلى تلك الحضارة زوراً إنما هى من الأمراض التى لا مفر منهـــا والتى تتبرأ منها مبادىء تلك الحضـــارة تبرؤ الاسلام ذاته منها ؟ وهل بنا من حاجة لأن نردد أن من يفرقون بين الشرق والغرب إنما يعبثون

بالحقائق التاريخية عبثهم برسالة الاسلام ؟

إن الاسلام قام في نشأته على دعائم المنطق والعلم ، وبهما بلغ ذروة عزته ، ولن تعود له مكانته السابقة إلا بهما ، ولا رسالة له ولا روح من دونهما ، وهو فى عالميته لا يعرف شرقاً ولا غرباً ، وإنما يعرف الانسانية جمعاء ، ويقول للمدنية العلمية الحديثة : لولاى يا بنيتى لما كنت ، فأنا موجد عصر « النهضة » وأنا حامى رجال الفكر والعلم ، وإذن فعلماؤك هم علمائى ، وهم جد أهل لتفسير مبادئى وتفسير « كتابى » المنزل . هذه هي روحى ، ومن عارضها فلا حق له فى الانتساب الى ، فما لى شأن بالظلام ، ولا بالقرون المظلمة ، ولا بالعقول الضيقة التى لا تفهم أن أئمة هذا العصر هم أوسع ثقافة وأحصف رأياً وأبعد نظراً وأجل إنسانية من الأئمة القدامى الذين صاروا فى ذمة التاريخ البعيد ، وصارت معظم تواليفهم فى حكم الأثريات فحسب .

روح الاسلام إذن هي روح التجدد المستمر المبنى على التجربة العلمية لسعادة البشر أينما كانوا وفاقاً لتعاليمه الأدبية الخالدة وتجاوباً مع الصالح العام .



هل الخالق مسئول عن الخلق ؟

يامن أبث إليه كل وجيعتى وأراه أوفى من يكون رحيما
من كان لا ينسى لديك بصحة حاشاك أن ينسى لديك سقيما
وأنا الفتى الجاثى ليسألك الرضى حباً ، ويأبى أن يعد أثيما
عرف الصلاح بنفسه من نفسه فرأى بها التحليل والتحريما

بماذا تشعر هذه الأبيات التى قالها صاحبها الشاعر المسلم منذ أربعين عاماً أو تزيد ؟ إنها تعبر بصراحة عن هذه العقيدة وهى أن الانسان مخير إلى مدى بعيد ، وعليه أن يعرف الصلاح بنفسه من نفسه فيتبين الحلال من الحرام ، ويتبع الأول لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً فى ثواب ، ولكن لأنه الحق ولأنه الخير ولأنه الجمال ، ولأن الكرامة والسعادة فى اتباعه ولأن رقى الانسانية مرتبط به ، ومع ذلك فالانسان أيضاً مسير لأنه نقطة أو قطرة فى بحر الألوهة العظيم ، والجاذبية بينه وبين هذا الخضم الهائل دائمة ، والبحر مسئول عنها فى حدود

القوانين الأزلية التى صحبت الكون وتكيف بها .

والابتهال إلى الله هو تشوق هـذه القطرة إلى المحيط . إنه تجاوب ومحبة وإيمان عميق ، ولا يمكن أن يضيع هذا الابتهال إذا كانت القطرة غير متنافرة مع المحيط ، راضخة للقوانين الأزلية التى لا يعتبر الرضوخ لها عبودية بل نظاماً ، والنظام من صميم الوجود .

بهذا المعنى العام كان مهندس الكون الأعظم مسئولا عنه ، كان المحيط مسئولا عن القطرة ، وكان الخالق سبحانه مسئولا عن الخلق .

إن من العبث مثلا أن يرتكب الانسان الجرائم ويخالف سنة الطبيعة ثم يحمل الله — جل شأنه — مسئولية مآله وعقبى أعماله ، فقد وهب العقل المرشد ووهب حرية التصرف ووهب النصيحة الربانية بواسطة الرسل ثم بواسطة العلماء خلفاء الأنبياء ولا ضابط له سوى النظام الكونى الذى يخضع الوجود بأسره له ، لأن النظام رابط السلامة وسلم النجاح ، فمن الوهم بعد ذلك بل من الضلال ، أن يتصور أن جرائمه تمضى بلا عقاب ، وأنه لا حسيب عليه ، بدعوى أن الخالق — لو أراد — لمنعه من

صنع ما صنع ، لأنه مسئول عن الوجود .

هذه مغالطة ما بعدها مغالطة إذ لو سير الانسان بدل أن يخير لضاعت مع حريته شخصيته ، وانتفت الدوافع لرقيه واعتزازه .

هذا إلى أن الحكمة الكبرى من هذا الوجود أو فلسفته ما تزال فوق إدراك البشر فى مرحلة تطورهم الحاضرة .

وإذا كانت الرحمة من أجل صفات الله ، فمع ذلك لنا أن نستشهد بقول أبى العتاهية :

ترجو النجـــاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليبس !

والابتهال أو الصلاة نهج لتقوية معنوية المؤمن ، ونهج للاندماج الصوفى فى محيط الالوهية ، فهى تاج العمل الصالح إذا ما وجد ، وبغيره لا تكون للصلاة أو للابتهال قيمة إلا إذا كانت أو كان اعلاناً عن توبة يصاحبها أو يعقبها العمل الصالح

إن التأميل فى رحمة الله — كالتأميل فى عونه — صواب ، والله لا يحابى ، وانما يكافىء ويجازى وفاقاً لسنته الخالدة .

وكلنا أبناء الله لا ريب ، وما دمنا محسنين عاملين فالله لا يغفل جزاءنا ، وقد تتجلى آياته لهدايتنا ، وإذ أوجدنا فهو مسئول عنا بالمعنى العام الذى ألمعنا إليه ، ونشدان الهداية أو الخير من الله مع العمل لاستئهال ذلك فضيلة يدعو اليها الاسلام. أما الاتكال الاعمى المقرون بسوء التصرف فلا عاقبة خير له ، والانسان مسئول عن نتيجته .

جاء فى الحديث الشريف : « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » ، ولو أعار المسلمون هذا النصيحة الحكيمة التفاتهم لما عانوا من سوء التناسل شيئاً ، وأغفالهم أو إغفال كثيرين إياها كانت نتيجته الإساءة إلى نسلهم وما جره ذلك من عواقب سيئة هم المسئولون عنها ، لا الله سبحانه وتعالى ، لانهم هم الذين لم يحترموا ناموس التناسل .

أما عن حرية الارادة الانسانية ونتائجها المنطقية فحسبنا هذه الآية الكريمة : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فأنما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل »

وأما عن حسن الثواب من الله والناس فدليله هذه الآية

الكريمة : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ومثلها قوله تعالى : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها » . وإذا كان جل شأنه قد خلق كل شيء بقدر ، فالانسان مسهم فى ذلك القدر ، مسئوليته تعظم بقدر ذكائه وتفكيره .

هذه هى نظرة الاسلام الصحيحة ، يساندها العلم والتفكير الأدبى المستقيم ، والتواكل بحجة أن الخالق مسئول عن الخلق ينفر منه الاسلام أشد النفور . قال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء » ، وعكس التواكل — إذا شذ واتخذ صورة الجبروت — بغيض أيضاً للاسلام . قال تعالى : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزى القوم المجرمين » . وهـــذا هو نهج الطبيعة فى إصلاح الانسانية إذا عجزت عن إصلاح نفسها .

منذ نيف وثلاثة عشر قرناً جاء محمد بن عبدالله برسالة فريدة وإن عدت تكملة للأديان السماوية السابقة — وهى رسالة ذات شقين : أحدهما الايمان برعاية الله وفضله ، والآخر إيمان الانسان بنفسه ليستحق تلك الرعاية وذلك الفضل . وهذا الايمان

يشمل إيجاد التآخى وتوطيد السلام بين البشر. وهذا وذاك يترتبان على قانون أدبى تشبعت به صحائف القرآن الشريف، ومحوره كلمة واحدة هى «الحق» أو «العدل». ويبشر ذلك القانون الأدبى بأن صائنى الحق ورافعى العدل هم المفلحون عاجلا أو آجلا، والله مسئول عن خيرهم خاصة، وابتهالهم لله مزيج من التدين والتصوف والفلسفة والشعر، وهم خليقون به لأنه اندماج الجزء الصالح فى الكل الأصلح، وهو ابتهال لن يخيب، وخلفه إيمان بمسئولية الخالق عن الخلق.

وقد يقول غير المؤمنين إن هذا وهم فى وهم، كما قد يسخر المتشككون أو يتحدثون حديث الحيرة كما صنع المعرى والخيام وقد يزعم الملحدون أن الكون مجرد صدفة، فلا خالق ولا مخلوق، وما علينا إلا أن نكون واقعيين فنعرف الكون بخصائصه ولا نتمادى فى التفلسف باحثين بحث المتخيل الحالم عما خلف هذا الكون من ألوهة مزعومة. ولكننا بوجداننا — حتى فى هذا العصر العلمى، بل بفضل هذا العصر العلمى — نرى أن الكون ليس مجرد صدفة مبهمة، ونشعر ونؤمن بأن للنظام

الكونى هدفاً سامياً من الخير والجمال، وأن الألوهة — أو القوى السامية المبدعة لكل هذا والمسيرة له — هى أصلنا وملاذنا فى كل وقت، مهما حبتنا من حرية فى تكييف أنفسنا ونسلنا وتقرير مصيرنا.

نعم، إننا نشعر ونؤمن بأننا من نفحات الألوهة، وما دمنا لا نثور على ناموسها الأزلى فنحن منها وإليها ولا غنى عن عونها، وابتهالنا إليه قوة يحسها الطفل المتعلق بأبيه المؤمل فيه.

والخلاصة: أن الاسلام حينما يبشر بحرية الانسان فى تقرير مصيره ومصير نسله يبشر أيضاً بمسئولية الخالق عن خيره وسعادته بالمعنى الأعم، أى للجنس البشرى تاج الخليقة المتطور نحو الكمال، ويبشر بمسئولية الخالق نحو الأفراد الخيرين وغير الخيرين على السواء عن طريق ناموسه الحكيم فينال الخير الخير وينال سواه ما يستحق من جزاء جلبه على نفسه بنفسه وهو كامل الاختيار. ولو ذهب عامل الاختيار لانحطت منزلة الإنسانية ولخسرت أضعاف ما تكسب، ولفسد قانون بقاء الأصلح، ولضاعت الحكمة الربانية التى جعلت للانسان منزلة خاصة فى هذا الوجود لغايات جليلة نحس بعضها ولا نفقه - فى مستوى التطور الذى بلغناه - جانبها الأعظم.

الحقيقة ضالة المؤمن

في ٢٣ نوفمبر ١٩٥٤ ألقيت محاضرتان عن الاسلام إحداهما في نيويورك والأخرى في وشنطن ، الأولى تحت رعاية « مجلس الشئون الاسلامية » ، وكان المحاضر الدكتور محمود يوسف الشواربي الأستاذ بجامعة القاهرة والأستاذ الزائر بجامعة نوردهام ، وعنوانها « جذور الثورة المصرية — the Roots of the Egyptian Revolution » والثانية برعاية « المركز الإسلامي » ، والمحاضر الدكتور فريد زين الدين سفير سورية بوشنطن ، وعنوانها « الإسلام وهو يعمل Islam in action » — وعلى الرغم من اختلاف العنوانين فقد اتفقتا في الصبغة الإسلامية ، وفي أن إلقاءهما كان بلغة انجليزية فصيحة . وكان من حظنا الاستمتاع بمحاضرة الدكتور الشواربي والتعقيب عليها ، ثم الاستماع إلى شريط مسجل لمحاضرة الدكتور فريد زين الدين .

وأول ما أحسسنا به من السرور أن يتولى المحاضرة مسلمان فاضلان ، وأن نجمع فى آن بين ممثلين لمدرستين تقدميتين .

١ — المدرسة الشرقية الإسلامية التى تركزت فى الأصولية العلمية فى الربع الثانى من هذا القرن خاصة وبزغت تعاليمها من (ندوة الثقافة بالقاهرة) بعد أن مهد لها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وطنطاوى جوهرى وعبد العزيز جاويش .

٢ — المدرسة الغربية الاسلامية التى احتضنت تعاليم الأولى وتوسعت فيها تبعاً لسنة التطور ، وبزغت تعاليمها فى العقد الأخير ومن أقطابها الدكتور أبو على خيرالله والدكتور فريد زين الدين.

وتتمثل صفوة تعاليم الأولى فى كتاب « عظمة الاسلام » للأستاذ رضوان إبراهيم الذى أصدره بالقاهرة ، وتتمثل صفوة تعاليم الثانية فى الدراسات الاسلامية المتعددة التى أذعناها منذ سنوات على (صوت أمريكا) وتناقلتها صحف ومجلات من بينها « نهضة العرب » كبرى الصحف الاسلامية فى العالم الجديد .

ولسنا هنا بصدد الكلام على نقاط المحاضرتين ، ولكننا فى موقف التوكيد لمسائل خاصة بالمحاضرتين والتعليق عليهما .

أحسن الدكتور الشواربى تبيانه أن جذور الثورة المصرية

بعيدة فى أصولها التاريخية وليست بنت العهد الحاضر ، كما أحسن بتنويهه بإسهام مصر فى نقل الحضارة من الشرق إلى الغرب إبان القرون الوسطى ، وقد أسهم فى التنوير الانسانى حينئذ علماء الاسلام والمسيحية على السواء مذ كانت مصر حصناً لكليهما . وأحسن الدكتور الشواربى بتنويهه بسماحة الاسلام ، وأنه ليس فى موقف المنافس للنصرانية بل المتعاون معها لخير الانسانية ، فالمسلم لن يكون مسلماً حقاً قبل أن يكون مسيحياً حقاً ، ومبادىء الثورة الأمريكية أو الثورة الفرنسية جاء بها الاسلام من قبل وتشبث بها عملا ، وإنه لعظيم التسامح مع الأقليات ، وليس المقصود بالجامعة الاسلامية مناوأة المسيحية بل التآزر معها لخير الناس .

وعندنا أن الشعب المصرى بفطرته شديد الميل إلى الحرية ، يحتقر الظالمين ، وهذا واضح من تاريخه القديم ، والفترات التى اكتسح فيها الغزاة مصر ليست مديدة بالنسبة إلى تاريخها الذى يحسب بعشرات القرون فى حين يحسب تاريخ أمريكا بعشرات السنين على حد تعبير الدكتور الشواربى .

وقد أشرنا فى مناسبة سابقـــة إلى ما رواه هيرودتس فى زيارته مصر وتعريجه على الأهرام وسؤاله الناس عمن بناها ،

فكان جواب بعضهم — تفادياً لذكر خوفو وغيره من الجبابرة — أن البانى لها هو « فلان » الراعى ، فجمع هذا الجواب بين الامتعاض والسخرية !

وقد اشتهر المصريون بسخريتهم من الظالمين ، كما فعلوا ببطليموس — والد كليوباطرة — الذى لقبوه « بالزمار » ، وكم استماتوا فى الدفاع عن حريتهم فى موقعة رشيد وموقعة كفر الدوار ، وقديماً كاد يوليوس قيصر تصيبه الهزيمة على أيديهم فى معركة بالاسكندرية ، ولم ينج من الدمار إلا بأعجوبة .

وقد جنت الأمراض المستوطنة على المصريين أكثر مما جنت جحافل الغزاة ، كالانكلستوما والبلهارسيا .

ومذ كان الاسلام ولا يزال ديناً تطورياً ونهجاً تقدمياً للحياة ، رائده الصالح العام فقد بلغنا الآن عهداً لا نتحدث فيه عن الأكثرية والأقليات ، بل يجب أن تضم الدولة الاسلامية جميع الطوائف تحت جناحيها دون قيد ولا شرط ، والمقصود بالدولة الاسلامية تلك التى تجعل ناموسها الأعلى تعاليم الاسلام الأدبية التى لا يجوز أن يشذ التشريع عنها ، والنص فى الدستور على أن دين الدولة هو الاسلام لا معنى له ولا موجب ، فالدولة

بمجموع الأفراد وبكل الطوائف لا بأغلبيتهم ، ومن الكفاية أن يذكر فى الدستور أن التشريع يجب ألا يخالف مبادىء الاسلام الأدبية .

هذا ما تقضى به طبيعة الاسلام العالمية الدائمة التطور والرقى ومذ كان الإسلام عقيدة إيجابية بانية ، فجميع الحركات الهدامة عدوة له ، وكل ما ينطوى على الغدر والقتل والاضرار بالصالح العام مخالف للاسلام مخالفة تامة ولو تمسح به من يزعمون أنهم من خيار المسلمين ، ويطيب لهم نشر التعصب الأعمى والترويج للقتل وارتكاب الجرائم ومحاربة الثقافة الحرة والعلم الصحيح والحضارة الرفيعة .

لم يفت الدكتور فريد زين الدين فى خطابه الجامع أن يلم بسيرة الرسول الكريم وبنواحى عبقريته الحقة ، وقد جمع فى هذه المحاضرة مسائل من اللباب الذى يوضح جلال الاسلام فجاءت محاضرته زبدة ثمينة لتعاليم الاسلام وصورة حقة لفلسفته .

ومع أننا فى أحاديثنا المتعددة تقدمنا بالآراء التى رددها إلا أننا نعتبر هذه المحاضرة مما لا يستغنى عنه كتمهيد بليغ سريع عن الاسلام لتنوير غير عارفيه ولتذكير عارفيه .

ومن أهم ما عنى بتقريره أن الاسلام لا يعرف شعاراً له أعظم من الحق ؛ وأن الحقيقة ضالة المؤمن ، وأن الشريعة الاسلامية قائمة على العقل والعلم ولا يمكن أن تخالفهما أو يخالفاها وأن الاسلام ليس ديناً بالمعنى الضيق ، بل هو نهج للحياة يشمل جميع مرافقها ؛ وأن الاسلام طبيعته التطور ، وتطبيقه يقوم على الدستور القرآنى والحديث والسنة والقياس والاجماع والاجتهاد ؛ وتوقف الاجتهاد معناه الجمود أو الموت أو الخواء (Vacuum) ؛ وأن الطبيعة لا تقبل الخواء بل لا بد من ملئه بشيء حى ، ومن ثمة هرعت الحضارة الغربية لملء هذا الخواء الذى خلقه الجمود فى حياة المسلمين ؛ وأن إزالة الترهات والخزعبلات من طريق الاسلام سمح بعودة الاجتهاد من تلقاء ذاته ؛ وهذا ما صنعه محمد بن عبد الوهاب ، فتعدد المجتهدون والمصلحون فى عصرنا الحاضر الذى يشهد فيه الاسلام بعثاً عظيماً ، وأن الوطنية والاسلام هما العاملان القويان فى هذا العصر للاصلاح فى المحيط الشرقى خاصة وإنهما لنهران يصبان فى محيط واحد .

وكل أمريكى حر استمع إلى هذه المحاضرة أو وقف على

خلاصتها لا بد أن يشعر شعورنا بوجوب شيوعها، لا لمحتوياتها المبصرة فحسب، بل لما فيها من مسائل تستدعى البحث والنظر مثال ذلك قول الدكتور : إن الاسلام لا يعترض على حكم الأغلبية لأن طبيعته ديمقراطية، ولكنه لا يكتفى بالكم وحده فالأغلبية ليست مجرد عدد.

وعندنا أن الاسلام الذى يحترم الصالح العام لا يتغاضى فى تطوره عن حق الأغلبية العددية كما لا يمكنه أن يتغاضى عن نتائج البحث الدستورى فى أصلح أنواع الحكم.

ومثال ذلك أن الاسلام لا يقبل المتجبرين ولا الحكام بأمرهم وإن قبل تركيز السلطة فى يد حاكم دستورى فى ظروف خاصة.

ومن النقاط التى لا يمكن تجاهلها أن تفسير التعاليم الاسلامية بل حتى تفسير القرآن، لم يعد وقفاً على المسلمين وحدهم، متى خلصت النيات، لأنه يتمشى مع الأصولية العلمية الكاملة، وكم من تفاسير لا قيمة لها، لأنها تنهض على إلغاء العقل والمعرفة.

وبحسبنا توكيد الأسس التى ينهض عليها والهداية التى يوحى بها، ومن السهل التفسير والتطبيق على ضوء العلم والمنطق

والحاجة العامة ، مع التطور حسب الظروف .

ليس الدكتور الشواربى ولا الدكتور زين الدين متخصصين فى الشئون الدينية ، ولكن كلا منهما باطلاعه الواسع وثقافته العصرية استطاع أن يعرض على نخبة من الأمريكيين المثقفين صوراً حقة جذابة للاسلام ، وكان من حقه أن يفعل ذلك . إذ ليس فى الاسلام كهنوت ، وقد خدما بجهدهما الطيب العلاقات بين الثقافتين الاسلامية والأمريكية ، نخدما بذلك مساعى المحبة والسلام .



تعاون الاسلام والمسيحية

من الحقائق المسلم بها أن القرآن يجب أن يعاد النظر فى فهم تعاليمه وتطبيقها من عصر إلى عصر ، ولابد من ظهور تفاسير جديدة متمشية مع روح العصر وتقدم العلم ، يؤلفها المطلعون الواعون من الأحرار المفكرين . وقد أتيح لنا منذ الربع الثانى لهذا القرن أن دعونا لمذهب الأصولية العلمية بمصر ، وشجعنا ظهور تفاسير جديدة .

ولئن كنا لم نزل بعيدين عن الهدف ، فإننا الآن أقرب إليه مما كنا لسنين خلت على الرغم من قيود البيئات الشرقية التى نجحت فى مسخ تعاليم الإسلام التقدمية حتى أصبحت جد غريبة عنه . وراح المتشدقون بتدريس الثقافة الإسلامية يتعلقون بكل غريب عن الإسلام ويجافون روحه وصميمه ، لأن أغلبهم بعيد عن الإسلام إما جهلا وإما نفوراً وإما حـــذلقة وإما عداوة ، ومع ذلك لا يتورعون عن الارتزاق باسم الاسلام وهم

حرب عليه ، ذلك لأن أهله فى غفلة عن إنصافه .

إن الاسلام وريث الأديان السماوية، تشبث بمثالياتها واحتضن المبادىء الانسانية الرفيعة التى نادى بها المسيح ، كما عمل الاسلام على تحقيقها بالحماية من الاعتداء ، وبالدعوة الإيجابية المنظمة على نطاق عالمى ، وهكذا كان الاسلام ولا يزال الساعد الأيمن للمسيحية ، إن لم نقل إن المسيحية أم له ، مما يجعل التضافر بينهما — إن لم نقل التوحد — أمراً ممكناً وواجباً .

وعقيدة شأنها حب السلام ونشره، وحب العلم ونشره - حتى أنقذت الثقافتين الأغريقية والرومانية - جديرة بإعزاز المسلمين والمسيحيين على السواء ، فقد كان الاسلام ولا يزال أبر بالمسيحية من كنائسها الرجعية التى سامت المفكرين الأحرار والأدباء العباقرة والعلماء اللامعين سوء العذاب جزاء إحسانهم للانسانية عشرة قرون كاملة ، حتى فصل ما بين الدولة والكنيسة . نقول إن عقيدة عالمية متسامحة كهذه هى من المسيحية وإليها ، بل هى من الانسانية وإليها ، وعلى هذا لا يجوز أن تقوم فى وجه تقدمها أية حوائل ، وهى الملهمة لكل تقدم ، ولا يجوز أن يحدد آفاقها زمان أو مكان ، وعلى هذا ينبغى أن تراجع تفاسيرها

مراجعة تقدمية من وقت إلى آخر ، فإن القرآن قد طالب المسلمين بذلك ووجههم الرسول الأعظم محمد بن عبدالله والخليفة الأعظم عمر بن الخطاب هذه الوجهة الحكيمة منذ فجر الاسلام .

وما وقف الاسلام يوماً خلف الهادى والمهدى والرشيد وأضرابهم ممن حاربوا الفكر الحر ، ولا سوغ مذبحة الشيعة الفظيعة سنة ٤٠٧ للهجرة ، ولا أجاز قتـــل أهل البيت خدمة للأطماع السياسية ، كما أن المسيحية الحقة لا صلة لها بموبقات محكمة التفتيش اللعينة ، ولا بمذبحة الألبيين التى حرض عليها البابا إنوسنت ، الثالث ولا بمذبحة الهوجونوت فى باريس سنة ١٥٧٢ للميلاد ، ولا باضطهاد لويس الرابع عشر للبروتستانت بعـــد زواجه من مربية أولاده الكاثوليكية المتعصبة ، ولا بدعوة لوثر نفسه إلى اضطهاد مناوئيه وقتل منكرى التعميد بعد أن كان فى أول أمره ثائراً على الجمود والاضطهاد ، وعلى هذا كان الاسلام والمسيحية فى صميمهما النبيل الحق ، على اتفاق تام فى رعاية الانسانية وحب الخير والسلام والسعادة . وكما عملت المسيحية متأخرة على تفسير الإنجيل على ضوء العلم وجب على الاسلام — وهو السباق إلى ذلك وباعث « النهضة » فى أوروبا ذاتها — أن

يماشى المسيحية الجديدة فى نظير هذا التفسير ،وعلى الأخص لأن فى القرآن من التنبؤات عن تطور العالم ومخترعات الانسان ومستقبل البشرية ما فيه ، لو فقه الناس دقائقه وتنبهوا جيداً إليها.

إن واجباً مقدساً على المسلمين المبادرة إلى احتلال مكانتهم فى طليعة موكب الحضارة ، وفاتحة ذلك أن يفهموا دستورهم الأجل الفهم العلمى الصحيح كما يفعل المسيحيون إزاء كتابهم المقدس ، وقد يؤدى ذلك إلى تقارب المسيحيين والمسلمين حينما يدركون أن الفواصل بينهم غير كبيرة بل تكاد تكون معدومة وأن هذه الفواصل نتيجة التأويلات الغير المنطقية والمجانبة لروح العلم ، وأن بالوسع خلق «فدرالية إسلامية مسيحية» قوامها التآلف والتعاون كأنهما دين واحد ، وفى ذلك غنم عظيم للانسانية .

إن مهمتنا توكيد البيان والدعوة إلى مذهب «الاصولية العلمية» كقاعدة للاسلام الصحيح ، وأما التفاصيل والجزئيات فبوسع كل مثقف أن يقيمها عليها سواء اختصت بالطهارة وسننها ، أم بالصلاة وما إليها ، كالجنائز والأطعمة والأشربة ، والصيام والزكاة ، والزواج ، والطلاق ، والكفارات ، والجنازات ، والأحكام ، والهبـــات ، والصدقات ، والرهون ، والشفعة ،

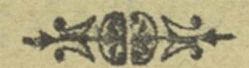
واللقطة ، والعتق ، والحدود ، والديات ، والوصايا ، والفرائض ، والجهاد ، والمناسك ، والأضاحى ، والذبائح ، والصيد ، والطب واللباس ، وأدب الاجتماع ، والدعاء ، والرؤيا ، والفتن ، والزهد . . أم بغير ذلك ، بدل التفاسير الكثيرة السخيفة فى هذه الموضوعات مما لا تليق نسبته إلى دين عظيم ، فالاسلام معرفة وفلسفة وروحانية وسلوك قويم !

وكما نضجت النهضة الدينية فى عهد الفاطميين بمصر المعدودة قلب العالم الاسلامى ، نتطلع إلى نضوجها الثانى على أساس على أصلح فى عهدنا الحاضر ، وهو عهد تميز بالنزاهة والغيرة الوطنية الرشيدة ، ولا يكفى أن تقضى حكومة الثورة على الخزعبلات « الدينية » بل عليها أن تحمى حرية الفكر الذى ينهض بالشعب وألا تسمح بالرقابة الرجعيـــة عليه ، إذ لا يمكن أن يترعرع الاصلاح فى الجو الخانق .

والواجب أن يعرف الاسلام كعقيدة روحية عقلية ، وكشريعة تقدمية . وهذا ما يجعل الاسلام تراثاً للعالم بأسره ، وليس وقفاً على طائفة أو أمة أو قارة أو ثقافة بعينها .

وثمة واجب على الحكومات الاسلامية والمعاهد الاسلامية

المستنيرة: أن تتضافر على خلق كراسى للثقافة الاسلامية ولأدب لغة القرآن فى الجامعات الغربية الكبرى ، على أن تسند هذه الكراسى إلى صفوة من الجهابذة الغيورين الذين يفهمون روح الاسلام جيداً ويعرفون أن الدين للأمة — كلغتها ومثالياتها — رمز لشرفها أو بضعة كبرى منه ، ولا تدعه للجاهلين الذين يشتغلون بتدريس الأوهام والخزعبلات وحسبانها من أركان الاسلام أو مقوماته ، ويتسابقون على أساسها فى الانتقاص منه ومن أهله واعتبار صحائفه كصحائف البردى الميتة بل أقل ، وكل هذا له رجع سيء على الشعوب الاسلامية حتى فى المجال السياسى .



لماذا أنا مسلم ؟

لسنين بعيدة كتب الدكتور إدهم رسالته « لماذا أنا ملحد ؟ » التي رددنا عليها برسالتنا « لماذا أنا مؤمن ؟ » ، واليوم يطالبنا عدد من المستمعين- بأن نجيب على هذا السؤال: « لماذا أنا مسلم؟ » ولعل هناك إجابة وافية عنه فى محاضراتنا وفى أحاديثنا وكتاباتنا فى مدى الثلاثين سنة الماضية ، ومع هذا يطيب لنا أن ندلى هنا بموجز ، رداً على هذا السؤال الوجيه : —

١ — العقيدة الاسلامية سمحة سهلة منطقية ، قوامها وجود قوة هائلة للألوهية الموحدة منظمة للوجود وفاقاً لسنن حكيمة أزلية . ولا يمكن تعريف هذه القوة الالهية أى وصف الله سبحانه وتعالى وصفاً أجل وأليق مما يطالعنا به الاسلام ، فقد جمع وصفه بين الفلسفة الصوفية وبين مفهوم الحقائق العلميه .

٢ — يأبى الاسلام الشرك بالله ، إذ يعده امتهانا للعقل، وخرافة الخرافات ، كما يأبى أن يحسب الانسان نفسه سخرة للطبيعة

أو رقيقاً فى الوجود ، فهو مخير إلى حد بعيد ، مسير باعتباره قطرة فى خضم العالم .

٣ — يعتبر الاسلام الأديان السماوية وحدة متكاملة ، فما نصر تعاليم المسيح مثل الاسلام الذى يعتبر الدين المعاملة ، والاسلام هو السلام وكل موحد لله ولو لم يكن مسلما فى حظيرة الاسلام فعلا ، ويمنع الإكراه فى الدين بل فى جميع مناحى الحياة .

٤ — يقف الاسلام ضد العدوان وينادى بالحرية والمساواة والإخاء منذ نشأته ، ويتبرأ من كل ما عداها .

٥ — لا يحصر الاسلام ذاته فى بيئة أو قطر أو زمن بل إن رسالته عالمية تأبى الحصر .

٦ — يكتفى الاسلام بدستور أدبى مقدس للسلوك والمعاش هو القرآن ، تاركاً للمسلمين أن يكيفوا قوانينهم على ضوء هذا الدستور الأعظم ، بحيث تكون ملائمة لبيئاتهم وأزمانهم وأقطارهم وللصالح العام والكرامة الانسانية .

٧ — يعتبر الاسلام العلم هو المصباح المنير المرشد إلى تفسيره القويم حسب المفهوم الانسانى وحسب تجلى الحقائق .

٨ — لا يقر الاسلام واسطة بين الانسان وربه، فلا كهنوت

فى الاسلام ، ويحترم الشخصية الانسانية ويؤمن بمستقبلها ويأبى أن يعد الانسان أثيما خسيساً إلى الأبد .

٩ — خلق الاسلام من مذهبه فى العدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقة وضعاً سياسياً للحكم لم يبز فى أى عصر ، وكان ولا يزال مصدر النعمة الموفورة للشعوب التى أخذت به مخلصة .

١٠ — الاسلام دين عملى كفيل بالنجاح المادى والروحى تنزه عن الخرافات والغيبيات السخيفة والأوهام التى يخلقها الجهل أو التعصب ، كما تنزه عن التواكل والتسليم الأعمى بالقدرية .

١١ — اعتبر الاسلام قداسة العلم أعظم من قداسة العبادة الشكلية ، لأنه اعتبر العلم فى ذاته أسمى عبادة .

١٢ — جاء القرآن بنبوءات انطبقت على تطور البشرية وعلى اكتشافاتها ومخترعاتها منذ أربعة عشر قرناً ، مما كشف عنه عصرنا الذرى .

١٣ — جاء الإنجيل بتنبؤات عن رسالة محمد كما جاءت قبله التوراة بذلك مما لا يحتمل أى تأويل آخر .

١٤ — جاء القرآن بنماذج باهرة من الأحكام ورتبها على قاعدة الأسباب والنتائج ، بحيث إذا زالت الأسباب زالت النتائج ،

وبهذا فتح صدره لتقبل جميع التشريعات المتمشية مع مبادئه الرفيعة والكفيلة بسعادة البشرية، وهكذا ساند جميع الحضارات السامية ورعاها ، فاستظلت بجناحه ، واستوعبتها فلسفته فامتدت وترعرعت وأسهمت فى إسعاد المسلمين بل البشرية عامة .

١٥ — لا يحتمل الاسلام الرجعية مطلقاً ، وإنما شعاره دائماً الرقى والتقدم ، فكل حجر على الحرية أو النهوض مناف له ، بل هو الكفر ، وكل إنسان يحترم حرية الفكر والقول لا بد أنه يناصر الاسلام ، ولو لم يكن من أتباعه .

١٦ — يعتبر الاسلام أن الانسان مسئول عن خلاصه بالعمل ، فلا وساطة ولا شفاعة ولا فداء إذا لم تنجه أعماله ، كما لا يعترف بالشفاعة ولا بالفداء ولا بالوساطة ، ويعدها من أوهام العامة وجهلة المفسرين الذين انطلت عليهم أوهام كثيرة أسندوها إلى الأحاديث الملفقة ، وما التبس عليهم من ظاهر الآيات دون حسبان لمعانيها العميقة أو لدلالاتها الرمزية الجليلة .

١٧ — يستطيع المسلم أن يكون موسوياً وعيسوياً ومحمدياً فى آن ، فهكذا روح الاسلام وعالميته ، ولذلك كان الاسلام أهلا لقيادة العالم قيادة ديمقراطية مشربة بروح المحبة والسلام .

لهذه الأسباب ولأسباب متفرعة عليها آثرت أن أبقى مسلماً واعتززت بإسلامى، ووهبت الوقت والجهد فى الكشف عن جواهره على ضوء العلم والمنطق، تاركاً التوسع فى التفسير والتطبيق العملى لمن يخصهم ذلك من الواعين والمثقفين المتفرغين لهذا العمل الحميـــد .

ولا يسعنا فى هذا المجال إلا أن نقتبس هذه التحية إلى نبى الاسلام .. إلى البطل فى صورة نبى ، فهى أبلغ فى دلالتها من أى شعر نزجيه .

قال كارليل (١) : « العقيدة المحمدية بين العرب أوضح مثل للظاهرة الثانية من ظواهر تكريم الأبطال ، حيث لا ينظر إلى البطل كإله ، وإنما كملهم من الله ، كنبى ... فلنحاول أن نفهم ما كان محمد يعنيه بالدنيا ، أو بالأحرى ما كانت تعنيه الدنيا لديه ... إنه بالتأكيد لم يكن دجالا ولا محتالا واسع الدهاء ولا مزيفاً ... والفروض القائلة بأنه كان كذلك ليست سوى نتاج عصر إلحادى تكشف عن ألوان من الشلل الروحى تدعو للأسى ... أفيقوى مدع زائف على إيجاد دين ؟ ... إن

(١) ديسمبر ١٩٥٤ مجلة كتابى ، ص٥٢ و ٥٤ .

الزائف لا يستطيع أن ينشيء شيئاً ، ولو كان هذا الشيء بيتاً من طوب! وما كان ميرابو، ولا نابليون، ولا بيرنز، ولا كروموبل، ولا أى مخلوق ليستطيع أن يفعل أمراً ما لم يكن قبل كل شيء صادق الايمان به.. فإن الاخلاص وصدق الايمان هما أعظم ما يميز جميع أولئك الذين يأتون عملا من أعمال البطولة ».

وقال أيضاً : « الاسلام يرمى بطريقته الخاصة — إلى إنكار الذات وقمع النفس. وهذه هى أسمى حكمة كشفتها السماء لعالمنا الارضى. وإنى لأجد فى محمد — وفى قرآنه — الصدق والاخلاص ، والتحرر الكامل من الزيغ والضلال قبل كل شيء وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الاثنى عشر مرشداً لخمس الجنس البشرى ، وظل — قبل كل شيء — موضع إيمـــان قلبي عميق . . . لقد كان العرب شعباً ضيق الأفق ، فبعث اليهم نبى بطل ، فلم ينقض قرن حتى وصلوا إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهى من ناحية أخرى » .

هذا هو الدين الذى أحببته ودعوت إلى محبته ، ولا أعرف ديناً اسمه « الاسلام » سواه جديراً بأن يعتز به ، لأن ما اتصف بعكس الصفات المتقدمة إنما يكون نقيض الاسلام يتبرأ منه كل مسلم ، بل كل مثقف مسلماً كان أم غير مسلم .

الاسلام بين الديمقراطية والشيوعية

فى مارس ١٩٥١ عقد « معهد الشرق الاوسط » مؤتمره السنوى الخامس عن شئون الشرق الأوسط فزودنا بطائفة من البحوث الاسلامية المفيدة . وقد رأينا ألا يفوتنا التعليق على صفوة من هذه البحوث ، وحديثنا اليوم يتناول خطاباً للأستاذ فيليب إيرلند Philib W. Ireland

يزعم الأستاذ ايرلند — مستشهداً بملاحظات للاستاذ الدكتور حتى — أن الاسلام ليس ديناً فحسب بل هو دولة أيضاً ، كما يزعم أن الاسلام يخص تابعيه بالسلام ويخص سواهم بالحرب ، وأنه لا محل فى تعاليمه لا للشيوعية ولا للديمقراطية . وواضح أن أغلبية هذه الآراء خاطئة من أساسها وإن كان مذيعها مستشرقاً فاضلا وجامعياً معروفاً .

إن الاسلام رسالة إنسانية إلهية عالمية الصبغة ، ودعوته قائمة أبداً ، ولا إكراه يصحبه ، وجهاده دفاعى لا يباح إلا لضرورة قصوى على الرغم من صبغته المشروعة ، والقرآن

والأحاديث النبوية مجموعة مبادىء أدبية وتعاليم إنسانية خالدة ونظم عمرانية تقدمية تصلح لكل زمن ومكان دون أن تتناول التفاصيل الكثيرة التى تتبدل من عصر إلى عصر ، وباعتبار القرآن سماوى الوحى اكتسب دستوره قدسية ضمنت له الرجحان الدائم ، لما توحى به من سمو وتقدم على مر الأعوام ، وقد ترك تكييف التفاصيل على ضوء تلك المبادىء والتعاليم والنظم .

وبديهى أن الاسلام ينافى الشيوعية لأنه يحترم الملكية وإن جافى الاحتكار ، كما أنه عدو الاستبداد أو الاستعباد لأن روحه ضدها ، وقد جاء بديمقراطية صافية عريقة قبل أن يعرف الغرب نظيرتها ، وليس هذا كلاماً نظرياً بل من صميم الحياة الاسلامية منذ عهد الرسول ، وإذا كان الخطيب قد أصاب باقصائه الشيوعية عن حظيرة الاسلام فانه لم يصب باقصائه الديمقراطية ، فالاسلام هو الديمقراطية بعينها ، وإذا كانت الديمقراطية الاسلامية تستند إلى دعائم إلهية فإن هذه الدعائم تزيدها قدسية ورسوخاً .

إن الشيوعية لا ترضى عن الاسلام لأنه أخطر عليها من الديمقراطية المألوفة ، فالأخيرة يستطيعون التحايل على تحويرها ولكنهم لا يستطيعون فعل ذلك بالقرآن والحديث وتعاليمهما .

ولذلك كان الشيوعيون أعداء ألداء للاسلام ، وقد أجاد الأستاذ أيرلند بعرضه الحصيف لهذا الموضوع .

فعلى حين كان الشيوعيون يتشدقون برعاية الاسلام وبإنصاف المسلمين ، مستشهدين باعتراف ستالين بالشريعة الاسلامية فى سنة ١٩٣٠ نجدهم يتأرجحون فى تصرفاتهم ، وفى يناير سنة ١٩٥٠ يصرحون بالاستغناء عنها. وهم يستعملون موظفيهم المسلمين فى الإشادة زوراً بمآثر السوفييت فى خدمة الاسلام ، كما استغلوا عدداً من المسلمين الساخطين على الاستعمار واليائسين من الأوضاع الاقتصادية المنحطة فى البيئات الاسلامية استغلالا شائناً ، فى حين أن الشيوعية والاستعمار والإقطاع والاستبداد والحكم الأجنبى المرهق كلها سواء فى إهدار الكرامة البشرية. فعلوا ذلك فيما نعتوه « مؤتمر استوكهلم للسلام » وبلسان المفتى الأكبر لاتحاد جمهوريات السوفييت ، وعلى ألسنة أخرى من آذربيجان ، ثم حاربوا ولاء المسلمين لدينهم وعملوا على تشتيت مجتمعاتهم ونقلهم إلى غير أوطانهم ، كما راحوا ينتقصون الرسول زاعمين أنه يمثل الإقطاعيين والتجار الأوستقراطيين ، وأنه استغل الاسلام والعرب لمصلحته الخاصة !

وقد كانت روسيا فى عهد سابق تأوى طائفة من العلماء المستعربين الغيورين آخرهم كراتشفونسكى ، والآن يشغل ولاة أمورها بمحاربة التراث الاسلامى المجيد ولغة القرآن الشريف .

ولننتقل الآن إلى موقف الاسلام من الديمقراطية الحقيقية . فالاسلام قائم على الشورى والعدل والمساواة وصيانة الكرامة البشرية ورعاية المصلحة العامة وحماية حقوق الفرد والمجتمع معاً واحترام الرأى العام ، وهذا كله لباب الديمقراطية الحقة . ولم يكن الاسلام يستعين فى التفسير والتشريع بفرد ، بل كان الافتاء للجماعة بأغلبية الأصوت مع تجنب احتقار رأى الأقلية ، وما كان الحكم اغتصاباً بل مبايعة ، والأمثلة التاريخية العملية المدعمة لهذه المبادىء أكثر من أن تحصى ، فليس الإسلام إذن غريباً عن الديمقراطية بل هو أبوها ، ومهما تنوع نشاطها فالاسلام يحتضنها بحنان الأبوة . وشتان بين ديمقراطيته وديمقراطية هتلر أوستالين .

إن الأستاذ ايرلند يعترف بمآثر الاسلام الفائقة فى إزالة الفوارق بين الناس فيما يتصل بالعنصر أو اللون أو الموطن ، ومع ذلك يقول إن الإسلام مجرد من عنصر هام هو عدم اشتراك غير المسلمين في الحكم ، وهذا يجعله غير مستكمل لشروط الديمقراطية :

الحقيقية ، كما يقرر أن الإسلام غــير حائز لصفة الديمقراطية السياسية . وهذا الكلام فى صميمه غير صحيح . فقد نشأ النظام الاسلامى فى شبه الجزيرة العربية ، والقرآن والحديث وتفسيرهما كان موكولا للمسلمين ، ولكن عند ما اتسعت الدولة الإسلامية وشملت غير المسلمين كان لهم نصيب وافر فى نواحى الحكم ، وإذا كانت رئاسة الدولة بقيت للخليفة المسلم فنظير ذلك فى انجلترا وفى أقطار عريقة فى ديمقراطيتها وأنه لرمز تقليدى فحسب . وفى لبنان رئيس الدولة مسيحى ورئيس الوزراء مسلم بحكم التقليد دون أن يقول أحد إن هذا الوضع يجعل لبنان دولة غير ديمقراطية ، وانتخاب مسلم بالذات رئيساً لجمهورية باكستان لم يجردها من ديمقراطيتها .

ورأينا إزالة هذا التخصيص إزالة تامة ، وسوف يحدث ذلك مستقبلا ، لأن الدوافع الأولى التى ألجأت الديمقراطية الاسلامية إلى الاحتياط خوفاً على مستقبل الإسلام قد زالت تماماً وبقيت روح الإسلام الديمقراطية قوية ناصعة ، وهذه الروح هى التى خلقت جمهورية باكستان الإسلامية الديمقراطية وجمهورية سوريا الإسلامية الديمقراطية .

وعلى هـــذا فزعم الأستاذ ايرلند فى غير محله واستشهاده بسلوك الدهماء ومن إليهم فى هذا القطر أو ذاك لا معنى له ، فأمثال هؤلاء يذوبون مع الزمن ذوبان الثلج تحت حرارة شمس المعرفة .

ولا ريب عندنا إطلاقاً فى أن الإسلام سيظل منبعـــاً للديمقراطية الحقة وستشمل آفاق رعايته عناصر أعظم وشعوباً أضخم ، وسيشغل أكثر فأكثر باللباب طارحاً عنه القشور التى تجمعت نتيجة لظروف خاصة أو لطوارىء وقتية .

شعلة تخبو . .

وبعد . . أيها القارىء الكريم

كم وددنا أن تصحب « أبا شادى » طويلا فى رحلاته الكشفية الجريئة ، وهو يرتاد منابع الدين الحنيف .

ولكن إرادة السماء أقوى وأحكم . .

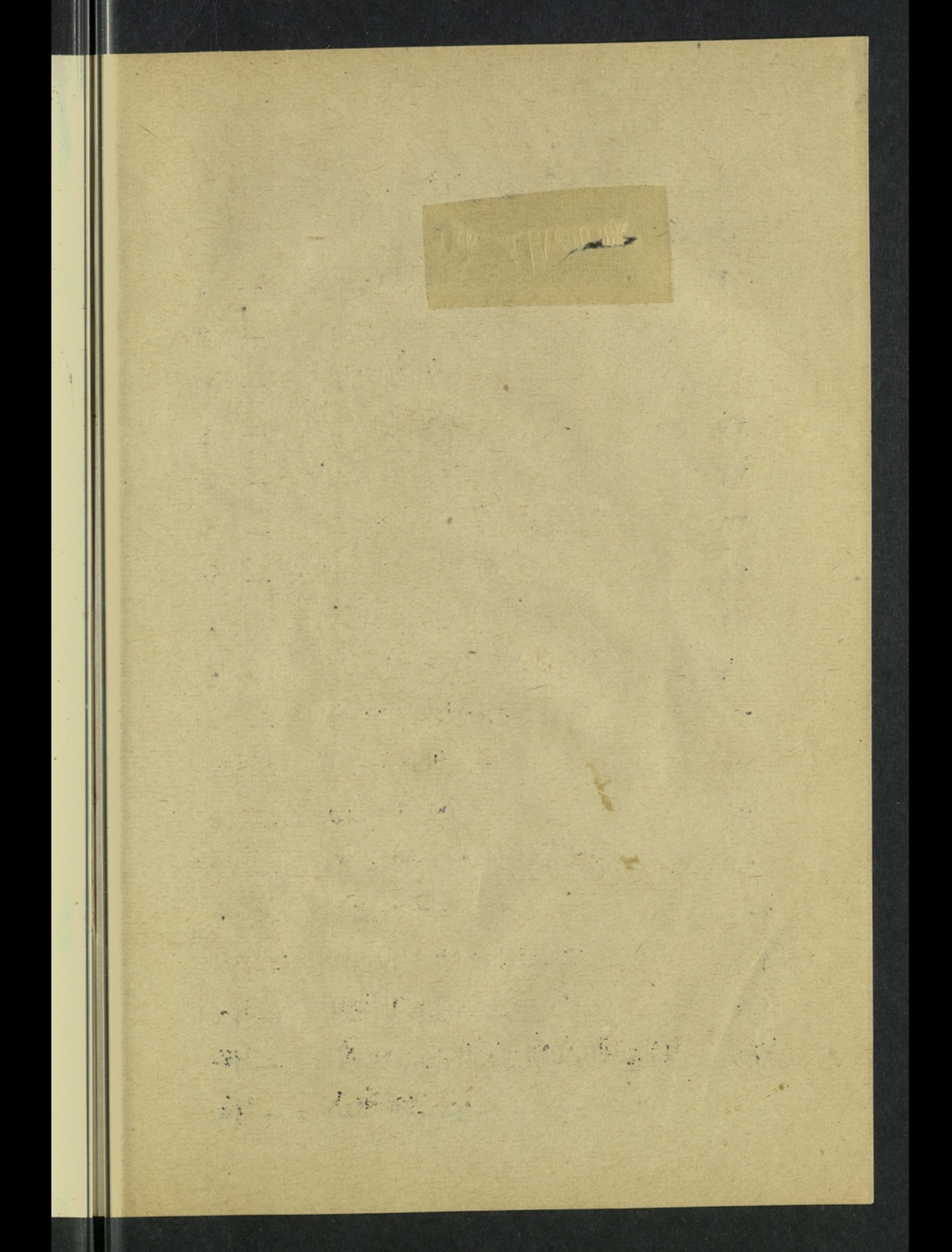
فحين كانت سطور هذا الكتاب تأخذ طريقها إلى الصحائف ، لتتماثل حياة نابضة ، تصافح القراء ، وتتحدث إليهم حديث « أبى شادى » رجل الإنسانية ، والمحبة ، والسلام . .

كان قلبه من وراء البحار يخفق آخر خفقاته ، ثم ينشر الشراع ، ويمضى عبر الخلود ، إلى أحضان الأمجاد السماوية .

لقد انطفأت شعلة هذه العبقرية فى ديار الغربة ، وفاضت روح أبى شادى مساء الثلاثاء ثانى عشر أبريل ١٩٥٥ بواشنطن .

فعزاء لمصر ، والعروبة ، والإنسانية .

فهرس



ابو شادى ،احمد زكى
الاسلام الحي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

01002566

American University of Beirut



297
A16iA

General Library

297
A524liA
C.1